



جامعة قاصدي مرباح . ورقلة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

رقم الترتيب:.....
الرقم التسلسلي:.....

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير

فرع: الأدب العربي
تخصص: أدب جزائري قديم
من إعداد : بوصوري ناصر
تحت عنوان:

فن الترسل في العهد الرستمي
مقاربة أسلوبية

أعضاء اللجنة

رئيس اللجنة: هيمة عبد الحميد	أستاذ محاضر	جامعة ورقلة
ممتحن: وذناني بوداود	أستاذ محاضر	جامعة الأغواط
ممتحن: موساوي أحمد	أستاذ محاضر	جامعة ورقلة
مؤطر: بلخضر أحمد	أستاذ محاضر	جامعة ورقلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى والدي الكريمين حفظهما الله وبارك فيهما.
إلى الذين حرمتهم وجودي معهم حتى و أنا بينهم؛ زوجتي الفاضلة وأبنائي
عبد القادر وإسراء ومحمد جبريل الذي جاء إلى الوجود وأنا أحبر هذه الصفحات .
إلى أساتذتي ومعلميَّ عبر مساري الدراسي.
إلى أستاذي الدكتور أحمد بلخضر الذي أشرف على هذا البحث.
إلى كل من يعرفني أهدي هذه الصفحات.

--

مُتَلَمِّمَةٌ

مُقَدِّمَةٌ

إنَّ من يتقصَّى تراث الجزائر يجده يزخر بكمِّ هائلٍ ما زال طي النسيان، وهو تراث ثري ومتنوع يشمل جميع جوانب الحياة الفكرية للعصور التي تلت الفتح الإسلامي من أدب، و فقه، و تآليف في مختلف التخصصات ؛و في هذا السياق برع عديد العلماء و الكتَّاب والشعراء في عصور مختلفة كانت لهم كلمة وكان لهم حضور، وتبوأ كثير منهم أعلى المراتب الأدبية؛من أمثال ابن رشيق المسيلي الذي صار أحد أكبر نقاد ذلك الزمان ،كما حظي الكثير منهم بمجالسة أهل الجاه و السلطان مثل ما حدث مع بكر بن حماد التيهرتي،وأكثر من ذلك فقد كان كثير من ذوي الجاه و السلطان أدباء من أمثال المعز بن باديس و تحتفظ كتب التاريخ و الأدب بأسماء كثيرة لمعت في عالم الأدب و أخرى جمعت بين السيف والقلم،وهذه الأسماء كلها تنتمي إلى هذه الأرض المباركة التي أنجبت و ما تزال تتجب العظماء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إلا أن ما يؤسف له حقاً أن كثيراً من التآليف و المصنفات ما زالت تترقد في أماكن مختلفة ، يرفض مالكوها أن تمس مجرد المس بالأيدي فما بالك بمطالعتها والتعرف على ما فيها ،أو تحقيقها و نشرها ليستفيد منها طلاب العلم والباحثون و الدارسون ،وإن استمر الوضع على ما هو عليه فإن هذا التراث

الغني، القابع في الخزائن و المكتبات الخاصة ستتآكل وريقاته و تصعب المحافظة عليها، فكيف بدراستها و التعرف على ما فيها أو تحقيقها؟.

و لعل ما يعصر القلوب أسيّ و حسرة أيضاً هو هذا الجحود والإنكار الذي نلاحظه عند بعض المثقفين من أبناء الجزائر مع كثير من الإصرار على أن الجزائر لا تملك رصيдаً. قلّ أو كثر . مما يسمى بالأدب الجزائري القديم،و كأن الجزائر لم تتجب ابن رشيق المسيلي ،ولا ابن خلدون ،ولا بكر بن حماد التيهرتي،ولا ابن الفكون ،ولا ابن الخلف القسنطيني صاحب "ديوان الإسلام في مدح الرسول الكريم (ﷺ)"،و لا محمد بن الحسين الطنبي،ولا أحمد بن قاسم البوني،ولا الغبريني،والأسماء يقف دونها الحصر،وأما ما تركت من تصانيف فقد بقي منها الاسم وذهب الرسم .

وقد لاحظت من خلال مطالعاتي المتواضعة لما كتب من دراسات على قلتها أنها كادت تهمل النثر إن لم نقل أهملته تماماً،زد على ذلك أنني اقترحت هذا الموضوع على عدد من أساتذتي الكرام وألفت عندهم ترحيباً به.كما أنني وجدت كثيراً من زملاء الدراسة قد مالوا ميلاً كبيراً إلى جهة الشعر،فاخترت لنفسي أن أخوض غمار هذه التجربة،ولا شك أنّ البحث والدراسة في هذا المضمار ممتعة غاية المتعة،ولا تخلو من فائدة وهي من ناحية أخرى فرصة للاطلاع على تراثنا الأدبي والفكري الذي لم ينل حقه من الرعاية

والاهتمام،ومازال كثير منه مهملاً في أماكن كثيرة وجب أن يُنفَضَ عنه الغبار،وَتُعَادَ له مكانته الطبيعية.

وقد وجدت في نفسي ميلاً إلى هذا الجنس الأدبي الذي له امتداد عظيم في تاريخ الأدب العربي مشرقاً ومغرباً،فقد كانت تُنشأ له الدواوين ويوظف له أبلغ الكتاب و أبرعهم وأجودهم خطأً وأقدرهم على تدبيج الرسائل ممن يتوسم فيهم الصلاح والتقوى والصدق والورع وغير ذلك من حميد الصفات،كما ألفت المصنفات العديدة التي تتحدث عن هذا الجنس الأدبي وخصائصه و شروط ممارسة هذه الصناعة وما يحتاج إليه الأدباء من معارف في مختلف التخصصات،ولعل من أشهر هذه المصنفات كتاب القلقشندي الموسوم بـ(صبح الأعشى في صناعة الإنشا).

و بناءً على ما سبق اخترت النثر من الأدب واخترت من النثر أدب الرسائل،لاعتقادي أن الرسائل ديوانية كانت أوإخوانية مرتبطة أشد الارتباط بالحياة،وبالتالي فهي تصفُ جانباً من الحياة العامة،كما تصور جزءً من الحياة السياسية . خاصة الرسائل الديوانية . التي كانت بمثابة المراسيم و البيانات السياسية بلغة عصرنا.

كما أن الرسائل تمكننا من أن نستشف المستوى الفكري والأدبي
و البلاغي لكتّابها وللعصر الذي كتبت فيه، وتبين مدى التطور أو الانحطاط
لدى أدباء تلك الفترة.

كما أنني أعتقد . و لا أحسبني أغالي في هذا الاعتقاد . أنه قد حان الوقت
أكثر من أي وقت مضى لهذا التوجه الذي يسعى إلى إمطة اللثام عن التراث
الضخم الذي تحوزه الجزائر، حان له الوقت أن يعمل بجد ونشاط ليظهره ويعلنه
على الملأ، وأنه من أوجب الواجبات على الباحثين والدارسين في مجال الأدب
أن يجردوا أقلامهم ويشمروا عن سواعد الجد ويكشفوا غوامض كثيرة يلفها
النسيان و يقتلها الجمود، ويأبى لها أهل الجحود أن تظهر للوجود حتى تصح
نظريتهم أنه لا وجود للأدب الجزائري القديم، وإني لأرجو أن تكون بحوث زملاء
الدفعة خطوة في هذا الاتجاه، وبذرة طيبة يأتي من يتعهّدها بالرعاية حتى تصبح
حديقة غناء.

و الذي يجب أن نشير إليه في هذا المقام أن أدب الرسائل موضوع
مطروق تناوله بالدراسة عدد من الباحثين و من الدراسات التي اطلعت عليها
في هذا التخصص كتاب بعنوان (أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين
السابع والثامن) لصاحبه الطاهر محمد توات و آخر تحت عنوان (الترسل في
القرن الثالث الهجري) للدكتور فوزي سعد عيسى، وكتاب ثالث بعنوان (النثر

الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه)لصاحبه عمر عروة،وغيرها من الكتب التي تناولت أدب الرسائل وتطوره في عصور مختلفة وبينت كثيرا من خصائصه،وتكلمت عن أعلامه وواضعي قواعده الأولى ،ولم تغفل شيئا من مباحثه العديدة إلاّ وتصدت لها بالبحث و التدقيق و المعالجة حتى استوفته من كل جهاته المعروفة في الدراسات التاريخية الأدبية القديمة.

إلا أنها لم تتناوله وفق منهج من المناهج النقدية المعاصرة ،ولعل هذا ما شجعني على الإقبال على هذا الموضوع الذي يتناول شريحة من النثر الترسلّي حددته بزمان معين والمتمثل في الحكم الرستمي بالجزائر .

وما شجعني على اختيار هذا الموضوع كونه ما زال بكرًا لم تتناوله الأقسام بالدراسة المتخصصة و المتعمقة في أساليبه وأنماطه التعبيرية،وقد انطلقت في هذا الحكم من مطالعتي المتواضعة لبعض الدراسات التي تناولت الأدب الجزائري بعامة والنثر منه بخاصة،والتي ألفيتها قليلة لاتشفي الغليل ولا تروي الغليل من رونق وجماليات هذا اللون الذي جادت به قرائح أدباء الجزائر في فترة بني رستم،والذي دفعني أكثر إلى تبني هذا الموضوع نصائح أساتذتي الكرام التي تُجمَعُ على أن هذا الموضوع جديد و جدير بالدراسة المتخصصة و المتعمقة في سبر أغواره و الاطلاع على مكنوناته.

ولم أجد طريقة أحقق بها هذه الغاية إلا أن اختار المنهج الأسلوبى وسيلة من بين الوسائل المتاحة الأخرى لأنه ينضوي على جانبين هامين في الدراسة؛ الجانب الموضوعي و الجانب الفني ،والموضوعي يكمن في توظيف المنهج الوصفي اللساني، والجانب الفني يقتضي البحث عن الجماليات الأسلوبية الناجمة عن الوظيفة التعبيرية للغة.

أما من حيث خطة البحث فقد رأيت أن أتناول بحثي هذا في مقدمة وثلاثة فصول؛ خصصت مقدمته للحديث عن الموضوع المختار للبحث، وأسباب ودوافع اختياري له، وعن الصعوبات التي اعترضتني أثناء البحث، أما الفصل الأول فقد آثرت أن أتحدث فيه عن النثر الفني عند العرب و نظرتهم للشعر والنثر، وأقوال الذين فضّلوا المنثور على المنظوم من كلام العرب، وتدلّيلهم لذلك التفضيل، وخصّصت جانباً للحديث عن فن الترسل من الناحية التاريخية، انتقلت بعدها للكلام عن تعريف الترسل لغة واصطلاحاً، وعلاقة الرسائل بفنون النثر الأخرى خاصة الخطبة، وعرّجت بعدها على أنواع الرسائل بادئاً بالترسل الديواني معرّفاً له ومتكلماً عن موضوعاته وخصائصه، ثمّ الترسل الإخواني وموضوعاته، يلي ذلك الحديث عن البناء الهيكلي للرسائل.

أما الفصل الثاني فقد خصّصته للحديث عن الدولة الرستمية بادئاً الحديث عنها من النشأة والتأسيس وما رافق ذلك من أحداث مكنت لتأسيس أول دولة

جزائرية بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، والحديث عن تيهرت و وصف
القدامي لها، ثم الكلام عن اهتمام الرستميين بالعلم والتعليم ومشاركة أئمتها في
ذلك، معرجاً بعد ذلك على الحياة الثقافية في ظل الدولة الرستمية التي كانت
تروم منافسة المشرق والأندلس في العلم والتقدم، حتى بلغ الأمر بالمؤرخين
والكتاب أن أطلقوا على عاصمة دولتها: بلخ المغرب فقد كانت الدولة الرستمية
تؤسس المكتبات وتجلب إليها الكتب من كل مكان، وترسل البعثات
العلمية، وتقام في مساجدها حلقات العلم ويجري النقاش والمناظرة بين مختلف
الفرق والمذاهب بكل حرية و ديمقراطية ومن غير تشددٍ أو تطرف أو تعصب
لرأي، وكذا الحديث عن العلاقات الثقافية بين الرستميين وغيرهم، انتقلت بعدها
للتطرق إلى الأدب الرستمي وبرز أول جيل من الأدباء الجزائريين الذين ما
زال التاريخ يحتفظ لهم ببعض ما تركوا من آثار رغم ضياع الكثير من إنتاجهم
الأدبي والفكري، وخصصت جزءاً للحديث عن أعلام فن الترسل و الموضوعات
التي تناولتها الرسائل الرستمية، ثم خصائصها البنائية.

أما الفصل الثالث والأخير فقد خصصته للجانب التطبيقي من
البحث؛ لتطبيق المنهج الأسلوبي على الرسائل التي كتبت في العهد الرستمي
وقد قمت بعد توطئة بتعريف الأسلوب في اللغة والاصطلاح، وكذا الحديث عن
ثوابت المقاربة الأسلوبية، شرعت بعد ذلك في تحليل الرسائل متبعا الخطوات

الإجرائية في المقاربة الأسلوبية بجوانبها الصوتية والتركيبية والدلالية؛ ففي المقاربة الصوتية درست ما يلفت النظر في استخدام بعض الحروف في كلمات تتقارب في مدلولاتها، واستخدام كتاب الرسائل الرستمية للمحسنات البديعية في رسائلهم، كالطباق والمقابلة والسجع، أما المقاربة التركيبية فقد انطلقت فيها من السمات الأسلوبية التي ميزت الرسائل الرستمية، وتطرقت فيها إلى نظام الجمل وتركيبها سواءً الاسمية أو الفعلية ودلالات الاستعمالين، ثم استعمال التوكيد في الرسائل الرستمية وما يدل عليه من معانٍ بالإضافة إلى استخدام تركيب الإضافة، متبوعاً بالتركيب الإنشائية من استفهام وأمر ونهي وما يُفهم من استخداماتها، وكذلك خلو الرسائل من بعض الأساليب مثل النداء ودلالة ذلك، وتطرقت إلى ظاهرة تناص تلك الرسائل مع القرآن الكريم وحديث المصطفى ﷺ، أما في المقاربة الدلالية فقد تناولت فيها مسألة الحقول الدلالية الشائعة في أدب الرسائل في العهد الرستمي، وأنهيت بحثي بالنتائج التي توصلت إليها من خلال مجموع الرسائل التي تمكنت من الحصول عليها في مصادرها على قَلَّتِها.

وبما أن البحث في هذا الميدان . ميدان الأدب الجزائري القديم . مازال بكرّاً، فإن الصعوبات لاشك تكون جمة والتغلب عليها ليس بالأمر الهين؛ وقد لاقيت من تلك الصعوبات قلة المصادر التي تحدثت عن الأدب الجزائري القديم، فهي

تعد على أصابع اليد الواحدة أما موضوع البحث . فن الترسل في العهد الرستمي . فلم يطرق إطلاقاً في حدود ما أعلم، كذلك قمت بالبحث عن الدراسات التي اهتمت بفن الترسل ولم أعثر ولو على دراسة واحدة تناولت هذا النوع من الأدب بالدراسة وخاصة وفق المناهج الحديثة، إضافة إلى كل هذا فإن أكبر الصعوبات التي واجهتني في بحثي هي صعوبة الحصول على المتن الذي أجري الدراسة عليه؛ ذلك أن المصادر التي تتحدث عن هذه الرسائل قليلة جداً إن لم نقل نادرة، والرسائل على كثرتها حسب ما تشير إلى ذلك بعض الرسائل التي عثرت عليها إلا أن تلك المصادر لم تحتفظ بها وقد تكون هناك عوامل أخرى ساعدت على اختفائها وعدم وصولها إلينا؛ منها يد الإنسان التي عاثت في كثير مما خلفه الأقدمون إما لجهل أو عن قصد كما فعل العبيديون بما خلفته الدولة الرستمية بعد سقوطها في أيديهم عام ست وتسعين ومائتين للهجرة (296هـ) فقد قاموا بحرق مكتبة "المعصومة" الشهيرة إلا بعض ما استطاع الرستميون الفرار به إلى الصحراء الجزائرية في سدراتة ورجلان والمحافظة عليه من الضياع والتلف.

إلا أن تلك الصعوبات قيض الله لها رجالاً وقفوا في وجهها وتصدوا لها بكل حزم؛ على رأسهم أستاذنا الفاضل المشرف على هذا البحث الدكتور: أحمد بلخضر جزاه الله عنا كل خير؛ فقد كان يزودنا بالنصائح والتوجيهات، ويسدد

خطواتنا ويرشدنا إلى الطريق الصحيح بملاحظاته الدقيقة بروح مرحة لطيفة بشوشة،دون أن ننسى باقي الأساتذة الأفاضل الذين لم يخلوا علينا بما لديهم من مراجع وكتب أفادتنا في البحث،ولم يألوا جهدًا في توجيهنا بنصائحهم الغالية،وأيضًا الأصدقاء والزملاء بتشجيعهم ودعواتهم لنا بالتوفيق والسداد حتى خرج البحث في شكله النهائي،كما أنني استعنت بكتب قيمة فتحت لي الطريق وساهمت في تنويره،منها: (أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن) لصاحبه الطاهر محمد توات و (الترسل في القرن الثالث الهجري) للدكتور فوزي سعد عيسى،و(النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه)لصاحبه عمر عروة،وغيرها من الكتب التي تناولت فن الترسل والله الحمد من قبل ومن بعد وله الفضل والمنة على ما أنعم به علينا وتكرم.

ورقلة:ذوالقعدة1428هـ

نوفمبر 2007م

الفصل الأول

في التدرس في الألب العربي

الفصل الأول

فن الترسل في الأدب العربي

أولاً: النثر الفني عند العرب

ثانياً: فن الترسل

أ/معناه اللغوي و الاصطلاحي

ب/الترسل والخطبة

ثالثاً: أنواعه:

أ/الترسل الديواني

ب/موضوعاته

ج/ خصائصه

د/الترسل الإخواني

هـ/موضوعاته

رابعاً: خصائصه البنائية

أولاً: النثر الفني عند العرب:

حظي النثر باهتمام النقاد والأدباء القدامى فشُغِلوا به، وجاء في مؤلفاتهم كلام كثير عنه، إلا أن اهتمامهم به لم يبلغ درجة اهتمامهم بالشعر الذي أمعنوا في بحثه من جميع جوانبه وفصلوا فيه تفصيلاً دقيقاً حتى بلغ حد الإفراط ولا نجدهم يقدمون تعريفاً مضبوطاً للنثر باعتباره فناً قائماً بذاته وإنما نظروا إليه كمصطلح مقابل لمصطلح الشعر في أكثر التعريفات التي صادفتني أثناء بحثي وكذلك الأمر بالنسبة إلى القواميس فإنها تناولت هذا المصطلح من الناحية اللغوية فقط ولم تشر إلى المعنى الاصطلاحي، ولكن في المقابل حظي النثر باهتمام النقاد و الأدباء في جوانب أخرى فعقدوا بينه وبين الشعر مقارنات واختلفوا في نظرة كل واحد منهم إلى كليهما، وانقسموا فريقين فمنهم من فضّل الشعر على النظم، ومنهم من رأى الفضل كل الفضل للنثر؛ وكان لكل فريق آراؤه وحججه ومن الكتب التي أولت هذا المصطلح الاهتمام نذكر على سبيل المثال لا الحصر الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي و سر الفصاحة للخفاجي، والحيوان للجاحظ و الهوامل و الشوامل لابن مسكويه والمقدمة لابن خلدون وغيرهم، وقد اكتفيت بذكر أقوال الذين فضلوا النثر ومما ذكره التوحيدي قال: «وسمعت أبا عابد الكرخي صالح بن علي يقول: النثر أصل الكلام، والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل، لكن لكل منهما زائناً

وشائعات، فأما زائنات النثر فهي ظاهرة، لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم في الثاني بداعية عارضة، وسبب باعث، وأمر معين»¹.

قال: ومن شرفه أيضاً أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على السنة الرسائل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منشورة مبسوبة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية مختلفة التصاريف...

و قال عيسى الوزير: «النثر من قبل العقل، والنظم من قبل الحس ولدخول النظم في طي الحس دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة، واحتيج إلى الإغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النثر». وقال ابن طرارة . وكان من فصحاء أهل العصر بالعراق :. «النثر كالحرّة، والنظم كالأمّة....

و قال: « ولشرف النثر قال الله تعالى في التنزيل ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا ﴾ ولم يقل لؤلؤاً منظوماً، ونجوم السماء منتشرة و إن كان انتشارها على نظام، إلا أن نظامها في حد العقل »⁽²⁾.

و قال ابن كعب الأنصاري: « من شرف النثر أن النبي . صلى الله عليه و سلم . لم ينطق إلا به أمراً و ناهياً، ومُستخبراً ومُخبراً، وهادياً و واعظاً، وغاضباً وراضياً، وما سلب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر، ولا نزه عنه

(¹) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مكتبة مشكاة الإسلامية، دت، دط، ص244.

(2) نفسه، ص587.

إلا لما فيه من النقص، ولو تساويا لنطق بهما، و لما اختلفا خُصَّ بأشرفهما

«(1)

ويضيف صاحب "الإمتاع" متحدثا دائما عن شرف النشر حيث نجده يقول:

« و من شرف النشر أيضا أنه مُبرَّرٌ من التكلف ،منزه عن الضرورة، غني عن

الاعتذار والافتقار، و التقديم و التأخير، والحذف و التكرير، و ما هو أكثر من

هذا مما هو مدون في كتب القوافي و العروض لأربابها الذين استنفذوا غايتهم

فيها. » (2)

أما ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة (466هـ) فقد تحدث عن الحاجة الماسة إلى

الكتابة و نفعها غير الخافي و مما قاله في هذا الصدد: « و أما الذي نقوله في

تفضيل النشر على النظم: فهو أن النشر يُعلم فيه أمور لا تُعلم في النظم

كالمعرفة بالمخاطبات، و بيئة الكتب و العهود والتقليدات، و أمور تقع بين

الرؤساء و الملوك يعرف بها الكاتب أمورهم و يطلع على خفي أسرارهم، وأن

الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة و الانتفاع بها في الأغراض ظاهر. » (3)

و من القدامى الذين تحدثوا عن النشر و نظروا له العلامة ابن خلدون (732-

808هـ، 1332-1406م) الذي يقدم تعريفا للشعر و النشر حيث يقول: « وهو

(1) المرجع السابق، ص589.

(2) المرجع نفسه، ص244.

(3) ابن سنان الخفاجي، سرالفصاحة، الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار

الثالث، 2003، ص491.

الكلام الموزون المقفى، و معناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون . «⁽¹⁾

و بعد أن يبين فيما يستعمل يحدد ما يختص به كل فن من فنون الكلام...«واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تُختصّ به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، و الحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختص بالمخاطبات و أمثال ذلك.»⁽²⁾ ثم نراه يعيب على كتاب الرسائل و السلطانيات خاصة استعمالهم أساليب الشعر و موازينه إلى درجة أن صار هذا المنثور من باب الشعر و فنه ويقول في ذلك : « و أما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم»⁽³⁾

أما ابن مسكويه فيقول: فكذلك النظم والنثر يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي صار به المنظوم منظوما⁽⁴⁾. ويرى الجاحظ أن كتب النثر لها الفضل في تقييد مآثر الأمم السابقة «...»

⁽¹⁾ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ط1، 1424هـ، 2004م، ص566.

⁽²⁾ نفسه، ص567.

⁽³⁾ نفسه، ص568.

⁽⁴⁾ . أبو حيان التوحيدي، الهوامل و الشوامل، الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث، 2003، ص554.

فقد صح أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر من الشعر...»⁽¹⁾ أما قدامة بن جعفر فنجدته يتحدث عن أقسام الكلام عند العرب فيقول: «اعلم أن سائر العبارة في كلام العرب، إما أن يكون منظومًا، وإما أن يكون منثورًا؛ والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام.»⁽²⁾

ولا يخفى على أحد أن المنثور من كلام العرب متنوع فنجد منه الخطابة والترسل والمقامة والمقالة؛ وكل نوع من هذه الأنواع مواضع يستعمل فيها وتختص به دون غيره من الأشكال التعبيرية الأخرى.

وللنثر مزايا وخصائص لا توجد في النظم «و من مزايا النثر تحرره من قيود أي من الوزن و القافية، وهذه المزية جعلته من حيث التعبير أداة أكثر مرونة من الشعر المنظوم. كما جعلته أقدر على معالجة موضوعات أكثر تنوعًا و تعقيدًا وأوسع مدى و مجالاً مما يمكن للشعر معالجته.»⁽³⁾

وإن كان للمنظوم مزاياه الخاصة إلا أن المزايا المذكورة آنفًا تجعل التفوق للنثر

ثانيا: فن الترسل

(1) . الجاحظ، كتاب الحيوان، تح عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2،

1384هـ، 1965م، ص86.

(2) . قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح طه حسين، دار الكتب المصرية، دت، ط2، 96.

(3) . عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ط2، 1391هـ.

1972م، ص161 .

لاشك أن أدب الرسائل قديم جدا وله صفحات مضيئة في تاريخ الأدب العربي وقد أُلِّفَتْ فيه كتب ودواوين كثيرة ونهج كل أديب منهاجا يختص به.

والرسائل فن أدبي ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين خاصة عندما بلغت الحضارة العربية الإسلامية قمة العطاء في مختلف الميادين والمجالات.

وهو فن نثري يُظهرُ مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمقة القوية.

و لم تكن الكتابة شائعة بين العرب في الجاهلية، ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم الأدبية في ذلك العصر لقلة الدواعي إليها. وإنما ازدهر عندهم الشعر والخطابة والحكم. وعندما جاء الإسلام تغيرت الحال و ظهرت مفاهيم جديدة لم تكن معروفة من قبل فرسول الله . صلى الله عليه و سلم . كان يشجع المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، لذلك وجدناه في غزوة بدر الكبرى يطلب ممن يحسنون الكتابة والقراءة من كفار قريش الذين كانوا أسرى في أيدي المسلمين أن يعلموا عددا معينا من أبناء المسلمين لقاء فدائهم، وما ذلك إلا لخطر الكتابة وعظمة شأنها، فهي كالمال بل أكثر من المال، وقد اتخذ الرسول . صلى الله عليه وسلم . كُتَّابًا يكتبون له القرآن الكريم، ويكتبون رسائله التي كان يبعث بها إلى رؤساء القبائل، ورُعماء المناطق، وملوك الدول و قد كانت الرسالة أول اتصال بالعالم الخارجي للرسول الكريم و لم يكن لا الشعر و لا

الخطابة قادرين على أداء الدور العملي الذي تؤديه الرسالة حين تنقل ما يتصل
بسياسة الدولة من مراسيم سياسية أو توجيهات أو تعليمات إدارية ومن هذا
التاريخ نafs الكاتبُ الشاعرَ والخطيب وأصبح له منزلة خاصة.

و استمر تشجيع الخلفاء الراشدين على تعلم القراءة و الكتابة و اتخذوا لهم
كتابا هم أيضاً يكتبون إلى الولاة وقادة الجيوش الفاتحة التي انتشرت في
مختلف الأصقاع لنشر رسالة التوحيد.

و رسائل صدر الإسلام عموماً « غالباً ما تبدأ بالبسملة ثم يأتي بعدها
تعابير من قبيل :من محمد رسول الله أو من خليفة رسول الله ،أو من أمير
المؤمنين .وقد تبدأ الرسالة باسم الرسول مباشرة مثل: "هذا كتاب من محمد
رسول الله ". وإذا كانت الرسالة موجهة إلى مسلم فإن خير ما تستهل به "سلام
الله عليك". أما إذا كانت موجهة لغير المسلم فإن ما تستهل به هو "السلام على
من اتبع الهدى" و تأتي بعد السلام مباشرة التحيات مثل : "إني أحمد الله" أو
"أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو" وقد يرد فيها ذكر التشهد أيضاً أو يكتفي
فيها بعبارة :أما بعد. « (1)

و عندما آل الحكم إلى بني أمية وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يطور
شؤون الدولة الإسلامية؛ أنشأ ديوان الرسائل هذا الديوان يعنى بشؤون
المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول

(1) . عمر عروة ،النثر الفني أبرز فنونه و أعلامه،دار القصبة للنشر، د ط، د ت، ص33.

الأخرى. وقد كان الخليفة . في بداية الأمر . هو الذي يُملي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغلب عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنع كما حدث ذلك لاحقاً و شهد فنُّ الكتابة نقلةً كبيرةً في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحيى الكاتب.* فقد عُرف عبد الحميد بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل: "بدئت الكتابة بعبد الحميد".

و قال عنه جرجي زيدان في "تاريخ آداب اللغة العربية"(فتحت الرسائل بعبد الحميد و ختمت بابن العميد**) ومن رسائل عبد الحميد المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار في العراق، ورسالته التي وجهها إلى عمال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته التي وجهها إلى

* . أول من أنشأ أسلوب الرسائل في الأدب العربي . قيل إنه كان يعلم الصبية قبل أن يشتغل بالكتابة في بلاط هشام

بن عبد الملك، أشهر رسائله "الرسالة إلى الكتاب"

** هو أبو الفضل محمد بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه،و كان لبراعته في صناعة الكتابة بلقب

بالجاحظ الثاني ،توفي سنة 360هـ .

الْكُتَّابُ وَأَصْبَحَتْ دَسْتُورًا لِمِهْنَةِ الْكِتَابَةِ.وعندما قامت الدولة العباسية أخذ خلفاؤها هم الآخرون يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقهم، ولهذا السبب كثر الكُتَّاب، ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وازداد التنافس بينهم ولا غرابة في هذا، لأن العمل في ديوان الرسائل أصبح مصدر رزق لهم، وغدا التفوق في فن الترسل وسيلة للحصول على ولاية أحد الأقاليم، بل إنه غدا مؤهلاً للوصول إلى منصب الوزارة، ونستحضر في هذا المجال أسماء: يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم ممن أوصلتهم هذه الصنعة وهذا الفن إلى ما كانوا يطمحون إليه من نيل لأعلى المناصب فقد كان لا يصل إلى تولي ديوان الرسائل إلا من حسنت سيرته وذاعت شهرته و كان فارس بلاغة و صاحب إتقان و جودة في تدبيح و تطريز الرسائل. وقد بلغ فنُّ كتابة الرسائل أوجَهُ في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بحيث يمكن لنا أن نصف هذين القرنين بأنهما يمثلان الفترة الذهبية لهذا الفن.

وتتقل لنا الكتب أن « أول من وضع البريد ،معاوية بن أبي سفيان ولم يكن البريد،عندئذ مثل ما نعرفه الآن في نقل الرسائل،و إنما كان مقصوراً على نقل

ما يهم الدولة و رجالها ،كما كان صاحب البريد في كل كورة ،بمثابة عين للخليفة يكتب إليه بكل ما يقع عليه بصره ،أو يصل إلى أذنه من أخبار.»⁽¹⁾

غير أن هذه الصناعة أصاب سوقَها الكسادُ في عصور الضعف حتى غدت الرسائل ضرباً من التفنن في جمع الألفاظ و رصها إلى بعضها، ثم ابتليت الأمة بعد ذلك باستعمار بغيض ضعفت أثناءه الكتابة عموماً والرسائل خصوصاً، وعمَّ هذا الضعف حتى كاد فن الترسل أن يمَّحى لولا بعض الأدباء الذين أبقوا على حياته بفضل ما سطرته أقلامهم من روائع، أما في وقتنا الراهن فقد صارت كتابة الرسائل لاتخطر على بال أحد من الناس ذلك أن التكنولوجيا الحديثة قد قضت أو كادت تقضي على فن الترسل برسائل مقتضبة و قصيرة تكتب على أجهزة الهاتف النقال أو في أحسن الظروف على البريد الإلكتروني فتأتي باردة خالية من العواطف و الأحاسيس ولعل الحنين إلى فن الترسل يذكي في نفوس الناس قبساً من نور فتعود كتابة الرسائل إلى سابق عهدها و يولد جيل جديد يعيد إلى الكتابة ألقها فنرى جاحظاً جديداً وعبد الحميد الثاني في الكتابة و غيرهما من الذين منحوا حياتهم وجهدهم لفن الكتابة والترسل.

(1) القاضي التتوخي، الفرج بعد الشدة، الموسوعة الشعرية المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث، 2003، ص301.

أ. معناه اللغوي و الاصطلاحي: قبل أن نلج إلى موضوعنا لابد من طرح أسئلة من قبيل: ما معنى الترسل؟ وما معنى أدب الرسائل؟ و من نَظر لهذا الفن أو الصنعة؟ و ما هي أنواع الرسائل الأدبية؟ وهل لأدب الرسائل كأحد الفنون النثرية ارتباط بغيره من أنواع النثر الأخرى؟ وما هي خصائصه الفنية والبنائية؟ وغيرها من الأسئلة التي تطرح في هذا الباب.

جاء في لسان العرب لابن منظور في باب الرء:

«و راسلُهُ مراسلة،فهو مراسل و رسيل و الترسل كالرسل و الترسل في القراءة والترسيل واحد،قال:و هو التحقيق بلا عجلة.و في موضع ثان قال:الترسل من الرسل في الأمور و المنطق كالتمهل والتوقّر والتثبّت، وجمع الرسالة الرسائل .

قال ابن جنية:« الترسل في الكلام التوقر و التفهم و الترفق من غير أن يرفع صوته شديداً.

و الإرسال:التوجيه،و قد أرسل إليه،و الاسم الرسالة و الرّسالة و الرسول والرسيل ،الأخيرة عن ثعلب ،و أنشد:

لقد كذب الواشون ما بحت بليلي ،و لا أرسلتهم برسيل

و الرسول بمعنى الرسالة ،يؤنث و يذكر،فمن أنث جمعه أرسلًا ، قال الشاعر:

قد أنتها أرسلني

و يقال :هي رسولك.و تراسل القوم:أرسل بعضهم إلى بعض.والرسول.الرسالة والمرسل وأنشد الجوهري في الرسول الرسالة للأسعر الجعفي:

ألا أبلغ أبا عمرو رسول بأنني عن فتاحكم غني .

عن فتاحكم أي حكمكم .

وفي التنزيل العزيز ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ و لم يقل رُسُل لأن فعولا وفعيلا يستوي فيها المذكر و المؤنث و الواحد و الجمع مثل عدو و صديق.

و الرسول:اسم من أرسلت و كذلك الرسالة. « (1)

كما جاء في مختار الصحاح في مادة رسل:« راسله مراسلة فهو مراسل ورسيل.و أرسله في رسالة فهو مرسل (بفتح السين) و رسول و الجمع رسل (بتسكين السين و ضمها) و الرسول أيضا:الرسالة. « (2)

و هو أيضا . أي الترسل . « من ترسل ترسلًا ،وهو كلام يرسل به من بعد أو غاب فاشتق له اسم الترسل،والرسالة من ذلك ،و الترسل مبني على مصالح الأمة،وقوام الرعاية،لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك،و سِرة الناس في مهمات الدين،وصلاح الحال وبيعات الخلفاء و عهودهم إلى غير ذلك. « (3)

(1) ابن منظور ،لسان العرب، دار لسان العرب،بيروت، لبنان المجلد الأول من الألف إلى الراء،مادة رسل.

(2) الرازي،مختار الصحاح،مكتبة مشكاة الإسلامية،دت،دط، ص154.

(3) عمر عروة،النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه،دار القصة للنشر،دت، دط،ص32.

أما الزمخشري في "أساس البلاغة" فقد ذكر في "باب رسل" ما يلي: «راسله في كذا. وبينهما مكاتبات و مراسلات، وتراسلوا، و أرسلته برسالة وبرسول. وأرسلت إليه أن افعل كذا. و أرسل الله في الأمم رسلاً.» (1)

أما الرسالة فتعريفها لغة: «هي كل ما يرسل أو هي الكلمة شفوية أو مكتوبة يبلغها الرسول أو يحملها إلى من ترسل إليه، وهذه الكلمة تختلف طولاً وقصرًا على حسب موضوعها.» (2)

و الرسالة تكون كتابة كما تكون مشافهة كما يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة و ذبيان هل أقسمتم كل مقسم
و نجد هذا المعنى أيضًا في قول كعب بن زهير:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة على أي شيء ديب غيرك دلكا
على خلق لم تلف ابنا و لا أبا عليه و لم تدرك عليه أخا لكا
ومن الكتب القديمة التي اهتمت بتعريف الترسل و الرسائل كتاب نقد النثر
لقدامة بن جعفر حيث جاء فيه: «والترسل من تراسلت أترسل ترسلًا و أنا مترسل، و لا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر، وراسل يرسل

(1) الزمخشري، أساس البلاغة، تح، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1998م، ص353.

(2) عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ. 1972م، ص221.

مراسلة فهو مراسل؛و ذلك إذا كان هو ومن يرأسله قد اشتركا في المراسلة، و أصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يرأسل به من بَعْدَ أو غاب،فاشتق له اسم الترسل و الرسالة من ذلك»⁽¹⁾

وفي كلام قدامة ما يدل على أن الترسل كان صناعة و مهنة لا يحترفها إلا من رسخت قدمه في الأدب، و كان له اطلاع على ضروب من المعرفة تؤهله لامتهان هذه الصناعة فضلا عن حميد الصفات ،كالصدق و النزاهة والإخلاص وما إلى ذلك.

و يسند هذا الكلام ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته متحدثاً عما يجب أن يكون عليه كاتب الرسائل من أخلاق و صفات فنراه يقول :« واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد أن يُتَخَيَّر من أرفع طبقات الناس و أهل المروءة والحشمة منهم،وزيادة العلم وعارضة البلاغة،فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك و مقاصد أحكامهم من أمثال ذلك،مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل،مع ما يضطر إليه في الترسيل و تطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها.»⁽²⁾

أما من الجانب الاصطلاحي فإننا نجد أن الترسل يأخذ معنى كتابة الإنشاء وفي ذلك يقول القلقشندي:« فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من

(1) قدامة بن جعفر،نقد النثر،مرجع سابق،ص98.

(2) ابن خلدون،المقدمة،دارالفكر للطباعة والنشر و التوزيع،بيروت لبنان ط1، 1424هـ، 2004م،ص247.

صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات والمسامحات، والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهدن، والأمانات، والأيمان، و ما في معنى ذلك ككتابة الحكم و غيرها.»⁽¹⁾

و لئن كان الأدباء الأوائل فصّلوا في هذا الجانب وأفاضوا فيه فإن المحدثين هم بدورهم أدلوا بدلوهم وكان لهم ما يقولون، و في ذلك يرى أحدهم أن الرسالة «هي ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبراً فيه عن شؤون خاصة، أو عامة وينطلق فيها الكاتب عادة على سجيته بلا تصنع أو تأنق، وقد يتوخى حيناً البلاغة، والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع»⁽²⁾.

أما حسين علي محمد فيعرفها بقوله: «هي فن من فنون النثر القولية، عرفها العرب منذ القدم، وهي مثل فنون النثر الأخرى (القصة، المسرحية، السيرة الذاتية...) لها خصائصها المميزة التي تجعلها فناً قائماً بذاته.»⁽³⁾

و فن الترسل معروف عند الأمم الأخرى أيضاً وهو قديم كذلك و حسب ما جاء في الموسوعة العربية فإن أعتق الرسائل التي وصلت إلينا رسالة بابلية كتبت على لوح آجري محفوظ ضمن غلاف من آجر أيضاً . كذلك نجد أن الآداب غير العربية هي الأخرى تناولت أدب الرسائل، واهتمت بتعريف الرسالة

⁽¹⁾القلقشندي، صب الأعشفي صناعة الإنشا، ج1، دارالكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ، 1922م، ص54.

⁽²⁾جبور عبد النور، المعجم الأدبي دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1972م، ص122.

⁽³⁾حسين علي محمد، التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، مكتبة

البيكان، الرياض، ط6، 1426هـ، 2005م، ص151.

و نقتصر هنا على بعض التعريفات المختصرة للرسالة منها: «الرسالة تواصل مع الآخر وتعبير عن الذات الكاتبة، مغالبة منها للبعد والغياب. » و منها كذلك: الرسالة «وسيلة اتصال طبيعية بين صديقين غائبين». و أيضاً الرسالة هي « محادثة مكتوبة بين شخصين متباعدين»⁽¹⁾.

ويبدو من خلال هذه التعريفات المختصرة للرسالة عند الغربيين أن الرسائل مهما اختلفت اللغات التي تكتب بها فإن القصد منها هو التواصل بين الأشخاص عن طريق فعل الكتابة.

ب . الترسل والخطبة:

للترسل ارتباط بغيره من فنون النثر الأخرى، خاصة الخطب لما بينهما من تشابه و تشاكل في جوانب عديدة و في ذلك يقول صاحب الصناعتين : و اعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن و لا تقفية ،و قد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فالألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، و كذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل لافرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، و الرسالة يكتب بها، و الرسالة تجعل خطبة، و الخطبة تجعل رسالة، في أيسر كلفة، و لا ينتهياً مثل ذلك في الشعر من

(1) أمّنة الدهري، الترسل الأدبي بالمغرب "النص و الخطاب "منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية

سرعة قلبه و إحالته إلى الرسائل إلا بكلفة، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعراً إلا بمشقة.

ومما يعرف أيضاً من الخطابة و الكتابة «أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار، و ليس للشعر بهما اختصاص. أما الكتابة فعليها مدار السلطان»⁽¹⁾.

و دائماً في مجال ذكر الأشياء التي تجمع بين الرسالة و الخطبة فإن كليهما موجه إلى مرسل إليه يتلقى المضمون و يفهمه كما أن الخطبة والرسالة تلتيان في مسألة الإبلاغ «...فينقل مضمون معين إلى فرد أو جماعة و لكن الخطبة تختلف عن الرسالة في عدة أمور أهمها:

- أن الخطبة غالباً بنت البديهة و الارتجال، و هي بنت ساعتها أو لحظتها بلا إعداد أو تهيؤ أما الرسالة فيسبقها التأني و تتطلب أعمال العقل، وقد تقتضي المراجعة والمعاودة.

- إن عنصر الفكر في الرسالة يكون . في الأغلب الأعم . أحضر و أقوى منه في الخطبة.

- الرسائل أدل و أصدق في التقييم الفكري و الفني و أقدر على تحديد ملامح صاحبها من الخطب، لأن الخطب، تنتقل . غالباً . مشافهةً و قد لا تسجل الخطبة

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث، 2003، ص 260.

إلا بعد مضي عشرات من السنين .أما الرسائل فهي أبقى وأثبت على الزمن،لأنها "وثائق" مسجلة مكتوبة...» ⁽¹⁾ وقد احتلت الرسائل في كل عصر حيزاً من اهتمام الأدباء و الموظفين والأصدقاء و الأحباء،ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى رسمية (ديوانية) وإخوانية. ⁽²⁾ «

ثالثاً:أنواعه:

أ. الترسل الديواني:

تسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل، الرسائل الديوانية نسبة إليه.وفي هذا يقول عبد العزيز عتيق⁽³⁾ عن الرسالة الديوانية: «وهي الصادرة عن ديوان الخليفة،و الأمير يوجهها إلى ولاته و عماله و قادة جيوشه،بل إلى أعدائه أحياناً منذراً متوعداً،كما ينبئنا الشريف الرضي في وصف رسائل أبي إسحاق الصابي:

وصحائف فيها الأراقم كُمن مرهوبة الإصدار و الإيراد

(1) جابر قميحة،أدب الرسائل في صدر الإسلام،ج1،عهد النبوة، دار الفكر العربي،ط1، 1406هـ،1986م،ص12.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج2، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985م،ص196.

(3) عبد العزيز عتيق،في النقد الأدبي،دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت،ط2، 1391هـ. 1972م،ص223.

حُمِرَ على نظر العدو كأنما بدمٍ يخطُّ بهنَّ لا بمِداد
و تتنوع هذه الرسائل ، فهي تشمل:الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية
العهد، وتولية القضاة، والولاة، وما يتصل بأمر الرعية. كما أنها تشمل أيضا
الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل
التهنئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك.

ومن أنواع الرسائل الديوانية أيضا. «رسائل الجهاد التي يوجهها الخلفاء
إلى قوادهم يكلفونهم فيها بالغزو ويزينون إليهم الجهاد في سبيل الله لإعلاء
كلمته، واعتمدت هذه الرسائل على المعاني الدينية، فكان الكاتب يضمنها الآيات
التي تتحدث عن تكاليف الجهاد باعتباره فريضة شرعها الله لحماية دينه وإعلاء
شأنه، كما كانت تتحدث عما ينتظر المجاهدين من ثواب و نعيم في الدارين»
(1)

ب . موضوعاته:

تطرقت الرسائل الديوانية إلى موضوعات عديدة و متنوعة، فكان منها ما
ذكرنا آنفاً أي رسائل الجهاد ،وكان منها أيضا التي ذكرت الفتن والاضطرابات
الداخلية التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد التشتت و التمزق الذي
أصابها،«كما كانت مبايعة الخلفاء من الموضوعات التي تناولتها الرسائل
الديوانية،و قد مالت كتب المبايعات إلى الإطناب و التطويل،و كان الكاتب

(1) فوزي سعد عيسى،الترسل في القرن الثالث الهجري،دار المعرفة الجامعية، 1991م،ص18.

يستهلها بالتحميد، و كثيرا ما يُطيل في تحميده حتى ليشبه خطبة دينية قائمة بذاتها « (1)

و يتصل بهذا اللون من الرسائل ما كتبه كتاب الدواوين « في التهاني بما تحقق من فتوحات و ظفر على أعداء المسلمين، وكان استهلال رسائل التهنة بالفتوحات سنة متبعة بين الكتاب حتى لتكاد تقترب في هذه السمة من الخطابة الدينية التي تجري على هذه الطريقة من استخدام التحميدات والإكثار منها. و تضمنت الرسائل الديوانية أوامر الخلفاء بتولية من يختارونهم من الولاة أو عزلهم، و كانت هذه الرسائل أشبه بمنشورات يوجهها الكاتب باسم الخليفة إلى عماله في الأصقاع المختلفة، ويتصل بالرسائل الديوانية ما كان يكتبه الكتاب إلى الولاة بتوجيهات من خلفائهم يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن ومتابعة شؤون و أحوال الرعية و العمل على استقرار الأمور.» (2)

ج . خصائصه:

عمل النقاد و الأدباء القدامى على ضبط القواعد التي ينبغي للكتاب أن يسيروا عليها في كتابة رسائلهم، و تعتبر رسالة عبد الحميد إلى الكتاب الدستور الذي سنَّ هذه القواعد وأصبحت بذلك محترمة و متبعة و قد وضع عبد الحميد القواعد الفنية التي سار عليها كتاب الرسائل الديوانية بعده، وقد ظلت طريقته

(1) نفسه ص24.

(2) المرجع السابق، ص26، 27.

تُحتذى لدى كثير من كتاب الدواوين في القرن الثالث للهجرة، وكان من هذه القواعد « التزام الكاتب في صدر رسالته بالتحميدات خاصة في موضوعات معينة كالتولية أو رسائل الجهاد، و قد طالت هذه التحميدات في بعض الرسائل حتى صارت أشبه بخطبة دينية مستقلة مما جعل بعض القدماء يجتزئون بالتحميدات عن مضمون الرسائل»⁽¹⁾

كما تضمنت الرسائل الديوانية آيات قرآنية لتدعيم آراء و حجج الكتاب، واتجه بعضهم إلى تضمين أبيات الشعر ،وبذلك صارت الرسالة الديوانية معرضاً لإظهار ثقافة الكاتب و معارفه في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية.

د . الترسل الإخواني:

وفي مقابل الترسل الديواني، يوجد نوع آخر من الترسل يعرف بالترسل الإخواني، وهو « الذي يكتبه الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة يعبر بها كاتبها عن الشوق و الحنين للأهل و الأصحاب.

يقول القلقشندي عن هذا النوع من الترسل: الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان ،والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء . «⁽²⁾

(1) نفسه، ص30.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مرجع سابق، ج8، ص126.

وقد عدد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر

نوعاً هي: «التهاني، والتعازي، والتهادي، والشفاعات، والتشوق، والاستزارة، واختطاب

المودة، وخطبة النساء، والاستعطاف، والاعتذار، الشكوى، واستماعة الحوائج، والشكر

والعتاب، والسؤال عن حال المريض، والأخبار، و المداعبة. » (1)

و لانجد في طيات الكتب التي تحدثت عن هذا النوع من الرسائل أية إشارة إلى

ما كتب في العصر الجاهلي، ولعل السبب يعود إلى قلة الكتاب في ذلك الزمن

أو إلى عدم اهتمام الرواة بما كتب لانشغالهم بالشعر الذي روي منه شيء

كثير وإلى ثقافة المشافهة التي كانت سائدة آنذاك. وأما في صدر الإسلام» فإن

ما وصلنا منه رسالة إخوانية واحدة للنبي . صلى الله عليه وسلم . يعزي فيها

معاذ بن جبل . رضي الله عنه . في ابن له مات، وقد ضاع أكثر رسائل العهد

الأموي من هذا النوع وما بقي منها فهو في النصيح والإرشاد والعتاب والتعزية

والاعتذار والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء.

ومن هذه الرسائل رسالة محمد بن الحنفية إلى أخيه الحسين حين افترقا

متخاصمين وأراد محمد مصالحته. » (2)

و الرسائل الإخوانية ينشئها الكتاب فقد«... كانوا يتراسلون فيما بينهم متخذين

من الرسائل وسيلة للتعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم وما تتعرض له أحوالهم

(1) ينظر المرجع نفسه، ج9، ص 5 وما يليها.

(2) عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه و أعلامه ،دار القصبة للنشر، دط ،دت، ص34.

النفسية من نوازع متضاربة؛ فصوروا فيها ما يعتورهم من شوق وفرح وما يتعرضون له من أحزان وأتراح؛ وما يداخلهم من رضا وغضب، واتسعت موضوعات الرسائل الإخوانية فأصبحت تعكس عواطف الكتاب في الصداقة والشوق والبشارة والفراق، والاستعطاف والاعتذار وغير ذلك، وتتنافس الكتاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل، فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى؛ فجمعت بين المتعة الوجدانية، والمتعة الفنية، وأحدثت بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم.⁽¹⁾

هـ . موضوعاته:

تدور أغلب موضوعات الترسل الإخواني حول الجانب الإنساني وما يرتبط به من صداقة وأخوة، وعواطف نبيلة، وما يتصل بالصداقة كما عبرت عما كان بين بعض الأصدقاء من تبادل للهدايا على اختلافها، لكن يبقى موضوع الصداقة ... من أبرز الموضوعات التي اجتذبت الكتاب، فعبروا في رسائلهم عن هذه العاطفة الإنسانية النبيلة، وأشادوا بروابط الإخاء والمودة التي تتعقد بينهم، ومن الجوانب التي طرقها الترسل الإخواني:

الاجتماعية:

(1) فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، 1991م، ص35.

اتسعت الرسالة الإخوانية للموضوعات المتصلة بالصدقة» كالرغبة في التلاقي للمسامرة أو المنادمة أو الإئتئاس، وعبرت كذلك عن بعض العادات الاجتماعية التي شاعت بين الكتاب آنذاك كتبادل الهدايا من كتب و زهور و خيول و سيوف وغيرها.

و اتخذ الكتاب الرسالة الإخوانية أداة لتوجيه الشكر إلى إخوانهم لمعروف أسدوه إليهم أو خير اختصاصهم به أو معروف أحاطوهم به.»⁽¹⁾

و لم تقتصر الرسالة الإخوانية على ما سلف ذكره من موضوعات بل امتدت إلى موضوعات أخرى لتشارك الشعر وفنون أخرى في ما طرقت من موضوعات وأغراض ف«...تناولت موضوع (الاعتذار) باعتباره يمثل صورة من صور العلاقة المتبادلة بين الكتاب؛ فكان الكاتب يعتذر عن تلبية دعوة أو المشاركة في إحدى المناسبات ذاكرًا له الأسباب التي حالت دون تلبية دعوته، و طوع الكتاب الرسالة الإخوانية لموضوعات أخرى كالوصايا و التشفع فكان الكاتب يوجه رسالة إلى بعض إخوانه يسألهم فيها إنجاز أمر يتعلق به أو بأحد معارفه وأصحابه، وكانت هذه الرسائل أشبه ببطاقات التوصية و فيها يعمد الكاتب إلى الإيجاز وعرض مسألته في عبارات قصيرة.

وكانت التهاني من الموضوعات التي شغلت مساحة من الرسائل الإخوانية لتعكس بذلك عادة اجتماعية وثيقة الصلة بالمجتمعات المتحضرة؛ فكثرت

(1) المرجع السابق، ص 35، 36 .

التهاني بالولاية وغيرها من المناسبات الاجتماعية السارة كالزواج و الإنجاب و العودة من السفر والإبلال من المرض،و عكست هذه الرسائل عمق العواطف المتبادلة بين الكتاب،كما أظهرت براعة بعض الكتاب في التعبير عن معانيهم ،وقد عمد الكتاب في تهانيهم إلى الإيجاز لتصبح رسائلهم أقرب إلى بطاقات التهئة المتداولة في وقتنا الحاضر».(1)

وجدير بالذكر أن الرسائل الإخوانية لم يشترط النقاد في صوغها وبنائها شروطاً دقيقة ملزمة،و إنما أطلقوا فيها العنان للكتاب للتعبير عن خواطرهم ومشاعرهم من غير قيد،لأنه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلف في الخطاب،مما جعل النقاد يفشلون في وضع قواعد وضوابط ملزمة لكتاب الرسائل الإخوانية،كما يبينه أحمد بدوي«وقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية،ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقة»(2) وهذا ما جعل الترسل الإخواني أكثر أدبية وأكثر جمالاً من الترسل الديواني وجعل رسائله «أدخل في الأدب،وأقْبَلُ للتخييل و الصور البيانية،والصنعة البديعية،تحتل الاقتباس من المنشور والمنظوم،وتنافس الشعر في جل أغراضه»(3)

(1) ينظر المرجع السابق ص38، 39، 45، 46 .

(2) أحمد بدوي،أسس النقد الأدبي عند العرب،مكتبة نهضة مصر،القاهرة،1964،د ط،ص32.

(3) محمد مسعود جبران،في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب،المجلد الثاني،دار المدار الإسلامي،ط1، 2004م،ص 149، 150.

الوعظية:

وهناك رسائل أخرى ليست ديوانية ولا إخوانية وإنما هي رسائل وعظية، ونعني بها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك. ومن أمثلة ذلك . أي الرسائل الوعظية . ما كتبه أحد أئمة الفكر الإباضي الإمام عبد الله بن أباض إلى عبد الله بن مروان وهي رد منه على رسالة بعث بها إليه مع سنان بن عاصم. (*)

التعليمية:

بالإضافة إلى الأنواع المذكورة سابقاً، هناك نوع آخر من الرسائل خُصص للحديث عن بعض الموضوعات الأدبية أو العلمية أو الدينية أو التاريخية، وهذا النوع من الرسائل يدخل في باب التأليف ولا يدخل في باب الترسل، ومن أمثلته الرسالة القشيرية في التصوف وبعض رسائل أبي العلاء المعري، مثل رسالة الغفران التي ألفها في عزله رداً على رسالة وجهها إليه ابن القارح ورسالة الصاهل والشاحج ورسالة الملائكة. وقد عُرف هذا اللون بالرسائل الأدبية، وكان الجاحظ أمير بيانه من غير منازع. « وتعدُّ رسالته الترييع والتدوير التي كتبها في هجاء أحمد بن عبد الوهاب أشهر الرسائل الأدبية إذ فتحت الباب

(*) ينظر نص الرسالة في كتاب أبي الربيع سليمان الباروني، مختصر تاريخ الإباضية، الضامري للنشر

لمن جاء بعده من الكتاب للإبداع في هذا اللون من الترسل في المشرق والمغرب والأندلس على السواء. وهذا النوع من الرسائل أشبه ما يكون بالمقالات في العصر الحديث، وفيها يتناول الكاتب موضوعاً خاصاً أو عاماً تناولاً أدبياً، مبنيًا على إثارة عواطف القارئ ومشاعره، وهي لا توجه إلى شخص بذاته، وإنما يكتبها الكاتب ليقراها الناس جميعاً. ⁽¹⁾

رابعاً: خصائصه البنائية

بعد أن تحدثنا عن أنواع الترسل، سنتكلم عن الخصائص البنائية لهذه الرسائل وما يشتمل عليه كل جزء من أجزاء الرسالة؛ من المقدمات إلى المضمون إلى الخاتمة وما ينبغي أن تشتمل عليه تلك الأجزاء.

أ . بنية المقدمات:

عرف البناء الهيكلي للرسالة تطورات مختلفة خلال مسيرته في تاريخ الأدب العربي، منذ رسالة عبد الحميد إلى الكتاب إلى موسوعة أبي العباس الفلقشندي مروراً بغيرهما من المؤلفات التي نظرت لهذا اللون الأدبي، وعن هذا الاختلاف يقول الكلاعي: «و نظرت . أعزك الله . في صور الرسائل واستقتاحاتها فوجدتها أيضاً تختلف» ⁽²⁾ ومقدمات الرسائل . ديوانية كانت أو

⁽¹⁾ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ط2، 1391هـ.
1972م، ص123.

⁽²⁾ (نقلا عن آمنة الدهري، الترسل الأدبي بالمغرب، مرجع سابق، ص37.

وإخوانية . تشتمل عادة بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ على المرسل والمرسل إليه، وتتضمن الدعاء، إضافة إلى التحية التي تذكر قبل البعدية وقبل الختام.

وتختلف استفتاحات الرسائل، ويختار الاستفتاح المناسب لمنزلة المرسل إليه فقد يذكر مقدماً عن المرسل بصيغة: لفلان من فلان. وقد يؤخر ذكره فيكتب: من فلان لفلان، وتكون في حالات أخرى بإيراد كنية المرسل إليه أو رتبته، غير أن كل الاستفتاحات كان يراعى فيها الجودة والحسن والبراعة لأنها تقع في البداية وهي أول ما يطرق السمع من الكلام، فيكون داعية للانشراح وإثارة انتباه المتلقي، وقد كان يُلجأ إلى المنظوم فتبدأ الرسالة بأبيات شعرية لكاتبها أو لغيره تدل على المضمون العام لها و تختصره في كلماتها، وكثيراً ما يلجأ الكاتب إلى الإشارة إلى غرض الرسالة في مطالعها ومقدماتها كعملية ربط وحسن تخلص.

ب . بنية المضامين:

ينتقل كتاب الرسائل إلى المراد من رسائلهم وبحسن تخلص لطرق الموضوع الذي يريدون معالجته في رسائلهم، وغالباً يقع حسن التخلص بصيغة: أما بعد وهي وقفة بين الابتداء والشرع في الموضوع المراد ذكره في الرسالة، وقد تنوعت المضامين في الرسائل بنوعيتها . الإخواني والديواني . ومست مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، فكان كتاب الدواوين يكتبون بتولية القادة والقضاة والأمراء، ويكتبون بمناسبة نصر جيوش المسلمين والتهنئة بذلك.

وفي الإخوانية يتبادل الأصدقاء الرسائل ويتطرقون فيها إلى الشوق والاعتذار والتهنئة بالزواج والمولود الجديد والتعزية والشكر و الدعوة إلى حضور مناسبة من المناسبات وغيرها من الموضوعات.

ج . بنية الخواتم والنهايات:

خاتمة الرسالة هي آخر شيء فيها» ،وتكون في الغالب بلفظ "السلام"أو "السلام ورحمة الله تعالى وبركاته"وتكون مسبوقاً بالدعاء،كما تشتمل كثير من الرسائل على التأريخ باليوم والشهر والسنة كعلامة على انتهاء الرسالة وإن كانت بعض الرسائل تؤرخ في البداية،ويتم التأريخ بما مضى من الشهر باعتباره معلوماً،ويشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة وحسن لأنه آخر ما يتبقى في الأسماع «⁽¹⁾.

على أن هذه العناصر البانية للهيكل العام للرسائل غير ثابتة ومستقرة،فقد يخرج الكتاب عنها في بعض الحالات.

وإذا نظرنا إلى الرسائل التي كتبت في العهد الرستمي . موضوع بحثنا . نجد تلك الرسائل تشتمل على هذه العناصر التي دأب الكتاب على اتباعها في كتابة رسائلهم ، إلا أن الرسائل الرستمية التي وقعت تحت يدي لم يرد بها ذكر المكان التي كتبت فيه، و لم يرد بها أيضا ذكر تاريخ الرسائل وإنما اشتملت

(¹) ينظر محمد طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، مرجع سابق، ص381 وما بعدها.
و أمانة الدهري، الترسل الأدبي بالمغرب، مرجع سابق، ص32 وما بعدها.

على البسمة و الصلاة على النبي . صلى الله عليه وسلم . والحمدلة و ذكر
المرسل والمرسل إليه و الموضوع المطروق في الرسالة. ولعل عدم ذكر المكان
في الرسائل الرسمية يعود إلى كون هذه الرسائل إنما كتبت في مقر الإمامة
وعاصمة الدولة الرسمية في ذلك العهد تيهرت فاستغنى كتابها عن ذكر
المكان لأنه معروف،ولأن كتاب الرسائل في الغالب هم أئمة بني رستم.
هذا بإيجاز ما يمكن أن نقوله عن الترسل الأدبي،في تاريخ الأدب العربي
منذ أن عرف العرب هذا اللون من الفنون النثرية،فماذا عن فن الترسل في
العهد الرستمي . موضوع بحثنا؟ ذلك ما سنتطرق إليه في الورقات القادمة من
هذا البحث بحول الله.

الفصل الثاني

فن الترسل في العهد الرستمي

الفصل الثاني

فن الترسل في العهد الرستمي

أولاً: الدولة الرستمية

ثانياً: اهتمام الرستميين بالعلم

ثالثاً: الحياة الثقافية في تيهرت

رابعاً: الأدب الرستمي

خامساً: فن الترسل الرستمي

سادساً: أعلامه

سابعاً: موضوعاته

ثامناً: خصائصه البنائية

أولاً: الدولة الرستمية:

مرت الدولة الرستمية . ككل دولة . بإرهاصات كانت السبب في الميلاد، والنشوء في وقت كانت السيطرة للخلافة الإسلامية ببغداد التي امتدت شرقاً وغرباً.

فقد « خرج أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري* إمام الإباضية من القيروان سنة إحدى وأربعين و مائة هجرية (141هـ) الموافق لسنة ثمان وخمسين وسبع مائة للميلاد (758م) لقمع شوكة قبيلة ورفجومة** المقيمة بطرابلس، واستخلف عنه القاضي عبد الرحمن بن رستم، وبقي أبو الخطاب هناك إلى سنة أربع وأربعين ومائة (144هـ) . (761م) حيث بعث لابن رستم ليلتحق به في وقائع الأمير محمد بن الأشعث، وما كاد ابن رستم يتصل في جنوده و عساكره الجرارة بأبي الخطاب حتى بلغه نعيه و انهزم جيشه، وشاهد يومئذ ابن رستم في قابس حوادث ثورات الأهالي على العامل بها، فما وسعه إلا الرجوع إلى القيروان فصادفها كذلك في ثورة عامة عارمة فتسلل منها في أهله و ولده وخرج مختفياً عن الأعين إلى أن حل بالمغرب الأوسط فنزل على قبيلة "لماية" - وهي بطن من بني فاتن بن تامصيت من البتر- بجبل منيع يسمى سوفجج(*) فاقتبله أهالي الجبل بما يليق به من الإكرام، وشاع يومئذ ذكره في الآفاق فوفدت عليه وجوه الإباضية من العلماء الأعيان و أخذوا حينئذ في تدبير أمرهم و

* واحد من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا في البصرة أصول الإباضية على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري.

** قبيلة بربرية كانت صفرية متطرفة.

* . جبل على مقربة من تيهرت.

تنظيم شؤونهم من رفع شأن الخوارج بإنشاء دولة لهم، وبينما القوم يخوضون في ذلك إذ فاجأتهم جنود ابن الأشعث فأحاطت بالجبل ثم ارتدوا عنه بأمر أميرهم، و يومئذ خرج ابن رستم في أصحابه يطلبون مكانا منيعا يتخذونه كمركز لبث دعوتهم و نشر مبادئهم بتلك النواحي فكان ذلك المكان بعمالة وهران على غيضة بين ثلاثة أنهر عند سفح جبل جزول(*)، هو (تيهـرت) المعروفة اليوم بتاقدمت غرب المدينة الرومانية (تيارت) الحالية أي على نحو خمسة أميال منها. (1)

هذه المدينة الجزائرية الواقعة في الجهة الغربية من الوطن الجزائري و التي شهدت ميلاد أول دولة إسلامية في بلاد المغرب العربي يتحدث عنها المقدسي (336 . 380هـ)، مبينا موقعها و لجوء الغرياء إليها و ما كان من أمرها في تلك الحقبة قائلا: «...هي بلخ المغرب، قد أهدقت بها الأنهار و التفت بها الأشجار و غابت في البساتين و نبعت حولها الأعين وجل بها الإقليم و انتعش فيها الغريب و استطابها اللبيب يفضلونها على دمشق و قد أخطأوا، و على قرطبة و ما أظنهم أصابوا، هي بلد كبير كثير الخير رحب رقيق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيد الأهل قديم الوضع محكم الرصف عجيب الوصف بها جامعان على ثلثي البلد وقد بنيا بالحجارة و الجير

* . ذكر الباروني في كتابه "الأزهار الرياضية" أن جبل جزول يسميه أهل السوس درن ، وأهل الزاب يسمونه أوراس .

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1400هـ، 1980م، ص165.

قريبان من الأسواق، و من دروبها المعروفة أربعة: باب مجانة، درب المعصومة، درب

حارة الفقير، درب البساتين، بقربها مدينة "رها" وقد خربت ...» (1)

أما ياقوت الحموي صاحب "معجم البلدان" فيتحدث عن موقعها ،و يصف مناخها

قائلاً: « تيهرت أو تاهرت اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لأحدهما تيهرت

القديمة و للأخرى تيهرت المحدثه بينها وبين المسيلة ست مراحل وهي بين تلمسان

وقلعة بني حماد،و هي كثيرة الأنواء و الضباب والأمطار حتى أن الشمس بها قل أن

تُرى.

وروى أبياتاً للشاعر التاهرتي بكر بن حماد جاء فيها: « (2)

ما أخشن البرد و ريعانه وأطرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنها تتشر من تحت

فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على سمت

نفرح بالشمس إذا ما بدت كفرحة الذمّي بالسبت

وجاء الحديث عن هذه المدينة في كثير من مؤلفات المؤرخين و الجغرافيين

العرب،وقد ذكر ذلك الباروني في كتابه "الأزهار الرياضية في أئمة وملوك

الإباضية"الكثير منهم و ممن ذكرهم» :الإدريسي،أبا العباس الدمشقي،اليقوبي،ابن

خلدون،والملك المؤيد الذي قال عنها في تقويمه على ما يذكر الباروني: "وهي مدينة

جليلة وكانت تسمى قديماً عراق المغرب و لها من أعمالها مرسى على البحر يقال له

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،مكتبة مشكاة الإسلامية،دت،ط،ص117.

(2) ياقوت الحموي،معجم البلدان،دار صادر للطباعة و النشر،بيروت،1397هـ،1977م،ص397.

مرسى [فروخ] و مدينة [تاهرت] الأولى على جبل متوسط، وبها منبر، وهي أعظم من القديمة، ولأهلها مياه تخرق دورهم، قال ابن سعيد، وكان لتيهت في المملكة الرستمية صيت عظيم، و بها كان كرسي ملك الإباضية»⁽¹⁾

والإباضية هم : «أتباع عبد الله بن إياض التميمي، الذي عاش في زمن معاوية، وكان من أتباع نافع بن الأزرق، ثم خالفه و انفصل عنه، كان نفوذهم في اليمن وحضرموت، و تزعمهم عبد الله بن يحي الكندي ،الذي بايعه أبو حمزة عام مائة وثمانية وعشرين للهجرة (128هـ) .»⁽²⁾

و انضوت تحت لواء الدولة الرستمية كل البلاد الجزائرية الحالية . تقريباً . «وكان نظام الدولة الرستمية الإباضية المذهب نظاماً محكماً، مقاماً على الشورى وانتخاب الإمام»⁽³⁾ على أن هذا الانضواء تحت لواء هذه الدولة الفتية آنذ و ربما بسهولة كبيرة وكذلك انتشار المذهب الإباضي في ربوع المغرب الأوسط ومسارة كثير من القبائل إلى الانضمام و نصرة الأئمة الرستميين كانت له أسبابه الوجيهة، فقد ساعد على انتشار المذهب الإباضي في بلاد المغرب الأوسط أن «...الديمقراطية هي محور مذهب الخوارج و قوامه على اعتبار أن الإمامة حق متاح لكل مسلم، فبديهي أن يلقي ذلك المذهب قبولاً لدى البربر الذين طال حرمانهم من المساواة مع العنصر العربي الحاكم، و من الطبيعي أن تتولد لديهم نزعة قومية مغربية تتطلع لإزاحة نفوذ الأقلية العربية عن مكان الصدارة والحكم في إطار شرعي يكفله الدين»⁽⁴⁾ و لم تكن نشأة

(1) الباروني ،الأزهار الرياضية في ملوك وأئمة الإباضية،تح مجموعة من الأساتذة،القسم الثاني،دار البعث،ط3، 1432هـ،2000م،ص17 وما بعدها.

(2) علي جفال،الخوارج تاريخهم وأدبهم،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1، 1411هـ، 1990م،ص48 .

(3) محمد بن تاويت ومحمد الصادق غفيفي،الأدب المغربي،دار الكتاب اللبناني،بيروت ،ط2، 1969.

(4)محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف ق 4هـ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1406هـ، 1985م،ص40.

المذهب الإباضي إلا بعد أن رأى أصحابه ما كان يدور في أيام الخلافة الأموية والعباسية و «حكمهم الذي لم يكن شورياً بل كان حكماً وراثياً يستلمه الأبناء عن الآباء. فناروا على ظلم العباسيين و الأمويين في المشرق والمغرب، وانفصلوا عنهم وأنشأوا في كليهما دولهم الإسلامية العادلة التي تقوم على الإمامة العادلة، لا على الملكية المستبدة، فبسط الأمويون والعباسيون فيهم السنة دعايتهم الكاذبة في المشرق والمغرب، فصوروهم في كتب التاريخ ولمن لا يعرفهم، على غير حقيقتهم، و أبرزوهم في غير ثوبهم، ليبعدوا الناس عنهم فلا يقتدوا بهم في الثورة عليهم» (1) و يجدر بنا هنا أن نلاحظ أن الرستميين رغم انتقادهم للحكم الأموي و العباسي القائمين على الوراثة إلا أنهم وقعوا في الخطأ نفسه فأنمة الدولة الرستمية كلهم من نفس البيت وهو البيت الرستمي، إلا أن ذلك كان يتم وفق نوع من الديمقراطية؛ ذلك أن اختيارهم كان يراعى فيه انتخاب الإمام والموافقة عليه من قبل الرعية.

و بذلك نشأت هذه الدولة الفتية التي كانت «...إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها...كثرت سكانها و ازدهرت الحياة بها».(2)

و يذكر أن الأئمة اختاروا تيهرت، بعد أن « حاولوا أن تكون في طرابلس ثم في القيروان ثم في طنبنة فأخفقوا في جميعها، لقرب هذه المراكز من الشرق ولسهولة المواصلات في هذه النواحي » (1)

(1) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج2، ط1، دار إحياء الكتب، 1382هـ، 1963م، ص293.

(2) مبارك الملي، تاريخ الجزائر قديماً وحديثاً، بيروت، ط2، ج2، 1959، ص57.

و كان شروعهم في ذلك «سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة (148هـ) خمس وستين و سبعمائة ميلادي (765م) ،ثم كانت بيعة عبد الرحمن بن رستم في سنة ستين ومائة للهجرة (160هـ) (776م) فكان بذلك عبد الرحمن أول مؤسس لدولة إسلامية جزائرية مستقلة.وكان على جانب عظيم من العلم والعمل و العدل والزهد،و كانت له عناية عظيمة بإعلاء شأن دولته،و له اهتمام خاص بفن المعمار،مشتغل بشؤون الرعية و السهر على مصالحها،وبلغ من زهده أن رَدَّ على أهل المشرق ما بعثوا به إليه من عشرة أحمال ذهباً،و قد سبق أن قبل منهم مثلها قبل ذلك حيث كان في حاجة إليه أيام التأسيس، و كانت أيامه كلها سلماً وأمناً . » (2)

وعن عبد الرحمن تروي كتب التاريخ أنه من أصل فارسي،و «ينسب إلى الأسرة الملكية الكسروية وفد مع والده للحج إلى مكة،و هناك توفي والده،و تزوجت أمه رجلاً من حجاج القيروان،و صاحبها معه إلى بلدته .وفي القيروان تلقى عبد الرحمن تعليمه،حيث التقى بداعي الإباضية هناك مسلمة بن سعيد،ثم رحل إلى البصرة مع نفر من أهل المغرب*،حيث تلقى مذهب الإباضية على يد إمامها أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي،واشترك بعد عودته إلى المغرب في ثورات الإباضية ضد الولاة،و تولى حكم القيروان سنة أربع وأربعين ومائة للهجرة(144هـ) إحدى وستين وسبعمائة

(1) سليمان داود بن يوسف،محاضرات الفكر الإسلامي الحادي عشر،ورجلان،1397هـ،1977م،منشورات وزارة الشؤون الدينية،المجلد الأولص112.

(2) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،مرجع سابق،ص166.

* يَذْكُر ابن الصغير أنهم خمسة ،سماهم إباضية المغرب حملة العلم الخمسة.

للميلاد(761م) نيابة عن إياضية طرابلس، لكنه اضطر في نفس السنة للفرار من

القيروان إلى المغرب الأوسط. » (1)

و يصور لنا الباروني حلول عبد الرحمن بن رستم على قبيلة لماية و استبشارهم به

«...ولما وصلهم استبشروا به لما يبلغهم من استقامته و عدله وعلمه وورعه،أيام كان

عاملا لأبي الخطاب على القيروان،و التقوا حوله و استظلوا بحمايته،و وقفوا عند أوامره

و نواهيه بدون أن يدعي فيهم خلافة أو يطلب بيعة أو ملكاً،ثم اجتمعوا إليه وقالوا :لابد

لنا من إمامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو و

تكون مأوى و مقراً لإمامتنا،و ملجأً لنا في حربنا و سلمنا،فأجابهم عبد الرحمن إلى ذلك

و استحسّن رأيهم » (2)

و إذا أردنا الحديث عن سيرة الرجل فإنه كان بسيطاً » ... شعبياً متواضعاً،يجلس

للناس في المسجد،»(3) لم يتخذ القصور سكناً بل كانت له دار متواضعة في تيهرت

يسكنها،وجده رسلُ إياضية المشرق «يصلح سطحها بنفسه وغلّامه يناوله الطين،لا

يملك داخلها سوى حصير فوقه جلد يجلس عليه و وسادته التي ينام عليها وسيفه

ورمحه و فرس مربوط في ناحية من داره» (4) كما اشتهر عنه ورعه وحبّه للعلم «...و

لما ولي من أمور الناس شمر منزه وأحسن سيرته وجلس في مسجده للأرملة

(1) نفسه،ص166.

(2) الباروني، الأزهار الرياضية،مرجع سابق،ص6.

(3) رابح بونار،المغرب العربي تاريخه و ثقافته،دار الهدى ،الجزائر،ط3، 2000م،ص28.

(4) ينظر ابن الصغير،أخبار الأئمة الرستميين ،تح ،محمد ناصر و إبراهيم بحاز،دت ،د ط،ص29.

والضعيف، ولا يخاف في الله لومة لائم، فطار ذلك في أطراف الأرض مشارقها ومغاربها حتى اتصل ذلك من إخوانهم . أي الإباضية . من أهل البصرة وغيرها من البلدان»⁽¹⁾ .
و في موضع آخر يضيف ابن الصغير متحدثاً عنه و عن قضاته و شرطته وخزنة المال قائلا: «سيرته واحدة ، وقضاته مختارة ، و بيوت أمواله ممثلة، وأصحاب شرطته والطائفون به، قائلون بما يجب. »⁽²⁾

وقد كان لسيرة هذا الإمام الأثر الطيب على الناس، جعل الكثير منهم يقصدون تيهرت للاستيطان من مختلف الجهات الإسلامية في ذلك الزمان، و لما شهدته عاصمة الرستميين من تطور و ازدهار و رقي ، جعلها قبلة تشد إليها رحال الباحثين عن الاستقرار الذي كان مضمونا للجميع على تعدد و تنوع مشاريعهم ومذاهبهم.

ولكن ذلك لم يمنع من وجود معارضة وثورة على دولة بني رستم من بعض الأشخاص الذين كانت لهم طموحات للوصول إلى الحكم ، ولما كانت الدولة العباسية على عداوة مع بني رستم فقد « رحب العباسيون بالثوار الخارجين على بني رستم، و وجد هؤلاء في بغداد ملاذاً آمناً بعد إخفاق حركاتهم. و الراجح أن العباسيين تعاونوا معهم على إسقاط الحكم الرستمي في تاهرت ، فنفاث بن نصر الثائر على أفلح بن عبد الوهاب الرستمي بادر بالهرب إلى بغداد حين ضيق عليه عمال الإمام على جبل نفوسة»⁽³⁾.

(1) نفسه، ص 28.

(2) نفسه، ص 35.

(3) محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1406 هـ، 1985 م، ص 186.

ثانياً:اهتمام الرستميين بالعلم :

لا بد لدولة تنشُد الاستقرار و الاستمرار من أن تهتم بالعلم و العلماء،و أن تنشئ لذلك الدور و تشيد المكتبات و تسعى إلى إعمارها و جلب الكتب إليها من كل مكان،و هذا ما قامت به فعلاً الدولة الرستمية فما إن استقر حكم بني رستم بتيهـرت و ما حولها حتى بادروا إلى تأسيس المدارس و المكتبات و غدت تيهـرت تضاهي عواصم العالم الإسلامي الأخرى بل و تتفوق على كثير منها في جوانب عديدة .

«...و ليست هناك دولة من الدول الإسلامية بالمغرب تداني حضارة الدولة الرستمية فيما بلغته من الرقي و الازدهار الأدبي و المادي...حتى أنها كانت تشبه و تقارن بقرطبة و بغداد ودمشق من عواصم الشرق اللامعة،و كانت تدعى بعراق المغرب...»⁽¹⁾

و لم يكن اهتمام أئمة بني رستم ككثير من الملوك و السلاطين في ذلك الزمان فقد كان هؤلاء يتنافسون في اقتناء وسائل اللهو و الغناء و يجلبون إلى قصورهم القيان و المطربين،أما بنو رستم و حسب ما ترويه لنا الكتب فإنهم «...و بعد استقرارهم لم يكونوا ككثير من الولاة يولون اهتماماً كبيراً بالملك و أبهته،و إنما اشتغلوا بنشر العلوم الإسلامية وتدعيم قواعد الإسلام حسب ما يدعو إليه المذهب الإباضي من الرجوع

(1) سليمان داود بن يوسف،محاضرات الفكر الإسلامي الحادي عشر،ورجلان،1397هـ 1977م،منشورات وزارة الشؤون الدينية،المجلد الأول،ص113.

لكتاب الله وسنة رسوله . صلى الله عليه وسلم . و قاموا بتركيز اللغة العربية لأنها

الوسيلة الوحيدة لفهم الإسلام على حقيقته و الاطلاع على أسرارهِ وحكمته.»⁽¹⁾

و لم يكتف أئمة بني رستم بتشديد دور العلم و المكتبات ،بل إنهم كانوا هم أنفسهم

يقومون بالتدريس فيها و اشتغلوا كذلك بالتأليف و نشر المعرفة على نطاق واسع لأن

العلم و المعرفة سببان كفيلا ب جعل أمور الدولة تسير على الوجه الأكمل «... ففي

العاصمة الرستمية تيهرت اهتم أئمة الدولة الرستمية بتأليف الكتب واقتنائها. مما أدى

إلى تكوين مكتبات عديدة و ضخمة بتيهرت،و من أشهر مكتبات تيهرت مكتبة

"المعصومة"التي تذكر المصادر أنها صومعة مملوءة بالكتب،في مختلف الفنون

والمعارف،و قد قام العبيديون بقيادة أبي عبيد الله الشيعي بإحراقها بما حوته من

كتب،بعد أن أخذوا ما فيها من كتب الصناعة والرياضيات و الفنون الدنيوية.

و قد كانت مكتبة المعصومة تحوي آلافاً من المجلدات،يذكر الباحث محمد دبوز بأنها

ثلاثمائة ألف مجلد،و كان من بين هذه المجلدات،ديوان يعرف بديوان تيهرت،ذكره

الدرجيني (الطبقات)،و قال عنه الباحث إبراهيم بحاز: "لا نعرف عنه شيئاً"⁽²⁾

(1) المرجع السابق،ص115.

(2) مهنا بن راشد بن حمد السعدي ،الشيخ عمرو س و منهجه الفقهي و العقائدي من خلال كتاب أصول الدينونة الصافية، مطابع النهضة ،ش م م ،مسقط ،ط1، 1424هـ، 2004م،ص128.

و من اهتمامهم بالعلم أيضاً أن أئمة الدولة الرستمية كانوا علماء زمانهم واشتهر عنهم أنهم تعلموا العلم وعلموه مع أنهم كانوا رجال دولة و حكم، وللسياسة والحكم أعباء ثقيلة و مع ذلك كان لا يفوتهم التدريس في المساجد والتأليف .

و لم يكن هذا الاهتمام منصباً على عاصمة الدولة تيهرت بل إنه امتد إلى عديد المناطق و بقية ولايات الدولة التي كان حظها من العلم و التعليم مثل حظ العاصمة، و من هذه المناطق جبل نفوسة الذي كان حاضرة من حواضر العلم في العهد الرستمي و التي اهتمت بإنشاء المكتبات و تعميرها بمختلف الكتب والمؤلفات «...ومن مكتبات جبل نفوسة المشهورة خزانة نفوسة، وهي مكتبة عامة كانت تحوي الآلاف من الكتب، وتوجد بمدينة شروس»⁽¹⁾ و إلى جبل نفوسة ينتمي العالم الإباضي المشهور الشيخ عمرو بن فتح صاحب كتاب أصول الدينونة الصافية والشيخ مهدي النفوسي وأبو الحسن الأبدلاني وغيرهم من العلماء.

كما أن الاهتمام لم يقتصر على إنشاء المدارس و المكتبات لنشر العلم والمعرفة بل إن العلماء كانت بيوتهم مدارس يقصدها طلاب العلم و بعضها كانت تقصده النساء مما يبرز المكانة التي كانت تتبوأها المرأة في المجتمع الإباضي «...فكان العلماء يفتحون منازلهم يقصدها طلاب العلم، ومن ذلك منزل أبي ذر أبان بن وسيم الذي كانت تقصده النساء للتعليم».⁽²⁾ ومن النساء الشهيرات اللائي نبغن في علوم مختلفة

(1) نفسه، ص 129.

(2) المرجع السابق، ص 131.

وساهمن بدور فعال في ترقية وازدهار الحركة العلمية في العهد الرستمي «أخت الإمام أفلح التي برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم».⁽¹⁾

وقد كان لبني رستم اهتمام خاص بالعلوم الدينية و الأدبية و شجعوا حركة التأليف ونسخ الكتب فكلما ظهر كتاب بالمشرق سارعوا إلى ضمه إلى مكتباتهم و في هذا يلاحظ «...أن الظاهرة العامة التي ينبغي أن نسجلها هنا هي أن العلوم الدينية والأدبية إنما يعود الفضل الأكبر في ازدهارها إلى بني رستم الذين شملوها برعايتهم،حتى نهضت نهضة عامة في تيهرت و نواحيها،و قد كانت رغبتهم شديدة،حتى أنهم كانوا كلما ظهر بالمشرق كتاب يهمهم جلبوه إليهم،و زودوا مكتبتهم التي أسسوها لهذه الغاية به و كان جميع أئمتهم رجال حكم،و رجال علم،فعبد الرحمن بن رستم كان عالماً و له تأليف في التفسير،وابنه عبد الوهاب برز في العلوم الدينية ،و له كتاب "نوازل نفوسة"،وهو مجموعة الفتاوى التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيها، وأفلح ابنه نبغ في الأدب».⁽²⁾

ويذكر في هذا المضممار أن أحد أئمة الرستميين وهو عبد الوهاب بن أفلح قد بعث إلى إخوانه في البصرة ألف دينار لشراء الكتب من المشرق فلما وصلتهم الأموال اشتروا بها ورقا و قاموا هم أنفسهم باستنساخ الكتب وإرسالها إليه فكان مقدار ذلك حمل أربعين جملاً على ما تذكر الكتب ولنا أن نتصور هذا الكم الكبير من الكتب التي لاشك أنها

⁽¹⁾ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، مج 2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981، ص575.

⁽²⁾ رابح بونار ، المغرب العربي تاريخه و ثقافته ،مرجع سابق، ص63 .

كانت في رفوف "المعصومة" و لاشك أيضا أنها كانت في مختلف التخصصات من فقه و طب ورياضيات، وغيرها من علوم الدين والدنيا زخرت بها المعصومة، و تناولتها أيدي طلبة العلم ونهلت مما اشتملت عليه من آداب وعلوم ، لكن لم يبق منها إلا ما ذكرته الكتب و تداولته الألسن أو هُرب بعيدا عن تيهرت بعد أن سقطت في أيدي الفاطميين وخربت وأحرقت المعصومة.

ويبدو من خلال هذا أن التعليم كان من أولويات الدولة الرستمية التي أسسها عالم من علماء المذهب الإباضي فلاغرو أن ينصب اهتمامها على نشر العلم والتعليم في أرجاء الدولة باعتباره أحد الأركان الرئيسة في بناء الدول فقد «...انتشر التعليم في تاهرت في العهد الرستمي، فكان الرستميون يدرسون في مساجدهم مجانا علوم الدين و اللغة، وكانت هذه العلوم تغطي على الحياة الفكرية. » (1)

هذه الحياة الفكرية التي كان لها ارتباط كبير بالشرق العربي، خاصة و أن المذهب الإباضي كانت بذرتة الأولى هناك حيث ظهرت كل المذاهب، في ظل الثراء الفكري الذي عرفته الحضارة العربية في عصورها الأولى حيث عرفت حركة عظيمة في التأليف و الترجمة، و ظهر المنشغلون بعلم الكلام ونشطت الفلسفة، فساد صراع فكري مع دخول كثير من الأمم في الإسلام و نقلها لثقافتها وعلومها، مما كان له انعكاس على الحياة العربية آنذاك و تلك المذاهب كان له وجود بعاصمة الدولة الرستمية تاهرت، التي عرفت بالتسامح المذهبي، و دارت في ربوعها مجادلات بين تلك المذاهب

(1) جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص110.

على ما يذكر ابن الصغير و كان أساسها الاحترام المتبادل و المناظرة بلطف و دونما تشدد أو تطرف أو تعصب، حيث يقول:« و كانت مساجدهم عامرة و جامعهم يجتمعون فيه و خطيبهم لا ينكرون عليه شيئاً إلا أن الفقهاء تتاجت المسائل فيما بينهم وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيه عاقبتها (كذا) ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قريوه وناظروه ألطف مناظرة و كذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك». (1) و كانت اللغة العربية هي لغة الدولة الرسمية، بها تتم المعاملات الرسمية، لكن ذلك لم يمنع من « أن كثيراً من الدروس التي تلقى على الناس في المساجد كان يلجأ فيها إلى اللهجة المحلية لإفهام عامة الشعب الذي لم تكن له ثقافة واسعة. و لاشك أن البربرية إذا كان لها دور في الحياة الفكرية إلى جانب اللغة العربية، فلا يتعدى الدور الثانوي، إذ أنها في تلك الفترة تستعمل بالمشافهة أكثر منها بالكتابة، لأن هذه الأخيرة بدأت تسيطر عليها اللغة العربية بحروفها وكلماتها. و كان للأئمة الرستميين دورهم الفعال في تثبيت العربية في الأوساط البربرية وكانوا من المعتنين بها لغة و وعاء لثقافة وفكر، لا يشك أحد في اعتنائهم بها. » (2)

والحديث عن اللغة العربية يجرنا للحديث عن الثقافة في هذه الدولة، وارتباطها بالدول المجاورة لها خاصة الدول القريبة جغرافياً، فقد كانت للرستميين علاقات حميمة مع جيرانها لأنها كانت دولة مسالمة و لم تكن تبادر إلى محاربة الآخرين أو تسعى إلى

(1) ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، مرجع سابق، ص102.

(2) بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، المطبعة العربية، ط2، 1414 هـ . 1993م، ص351.

بسط نفوذها على الأقاليم المجاورة، بل كان أقصى جهدها بناء دولة إسلامية تحكّم الكتاب و السنة، وتعمل على نشر العدل و المساواة بين الرعية «...ورغم ما يقال عن الحركة الخارجية من أنها حركة فوضوية، ضد النظام، وإجماع الأمة، وأنها دخيلة بسبب دعائها من الموالي الموتورين، أو عنصر ضعف في العقيدة الإسلامية و في النظام السياسي الإسلامي. فينبغي في نظري، اعتبارها أولاً. ثورة فكرية، أنتجت أدبا، و علما، و فقها، و طورت العقيدة والمذهب السياسي، و أغنت الحضارة الإسلامية بعناصر مفيدة، و ثانيا: هي نتيجة من النتائج الحسنة، لانفعال العناصر غير العربية بالإسلام، و تفهمها لأصوله، ومناقشتها لمبادئه و قواعده.»⁽¹⁾

وقد عاشت الدولة الرستمية فترات سلم طويلة وكانت ملجأ لكل الطوائف و الفرق «...ويذكر التاريخ أن الدولة الرستمية كانت ميالة إلى السلم و أن كافة حروبهم مع جيرانهم كانت للدفاع فقط باستثناء مرة واحدة اتخذوا فيها موقف الهجوم، لما حاصر عبد الوهاب بن رستم طرابلس سنة ست و تسعين و مائة للهجرة (196هـ) اثنتي عشرة و ثمانمائة للميلاد (812م)».⁽²⁾ ممّا جعل منها حاضرة من حواضر العلم والمعرفة تتنافس أرقى حواضر العالم في ذلك الزمان.

ثالثا: الحياة الثقافية في تيهرت:

⁽¹⁾ موسى لقبال، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة و نظم ، م، و، ك، ط3، الجزائر، ص154.

⁽²⁾ محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع للهجرة، مرجع سابق، ص188.

ما إن قامت دولة بني رستم، واستقام عودها حتى أرست قواعد ثقافية مع غيرها من الحواضر الموجودة في ذلك الزمان، قامت على التعاون وحسن الجوار والاحترام المتبادل، وقد كان لسياسة الأئمة الرستميين المبنية على السلم دور عظيم في إنشاء هذه الصلات الثقافية و توطيدها، كما أن العلاقات الاقتصادية التي أقامتها الدولة الرستمية مع السودان وأفريقية والأندلس مهدت لهذه الصلات الثقافية وصاحبته، وتنوعت هذه الثقافة دينية وأدبية وعلمية وشملها الرستميون برعايتهم فازدهرت ونمت في العاصمة تيهرت و نواحيها، ومن مظاهر اهتمامهم بالثقافة أنهم كلما ظهر في المشرق كتاب جلبوه إلى (المعصومة)، ويبدو أن الأئمة الرستميين أرادوا أن ينافسوا بغداد في علمها و تطورها و رقيها الثقافي والحضاري، فكانوا يرسلون البعثات العلمية إلى المشرق للتزود بالعلم والكتب، كما أنهم اهتموا بالترجمة، فكان لهم مترجمون بالفارسية و الرومية، وجدير بالذكر أن العائلة الرستمية «كانت تعرف الفارسية و تحافظ عليها باعتبارها لغة الأجداد ولغة الحضارة القديمة وكان لهم مترجمون يحسنون الفارسية يترجمون تلك الكتب، وآخرون يترجمون الكتب الرومية و كانت اللغة الرومية منتشرة في المغرب. وقد اهتم الأئمة بتنقيف سكان أعالي الجبال في الدين و الشريعة الإسلامية بالعربية تارة وبالبربرية تارة أخرى إذا اقتضى الأمر إلى ذلك.»⁽¹⁾

وعلى الرغم مما كان بين الأمويين في المشرق و الرستميين؛ فإن أمويي الأندلس ربطتهم علاقات طيبة بالرستميين، شملت الجانب الاقتصادي و الجانب السياسي

(1) محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص95.

وامتدت إلى الجانب الثقافي «...و صاحب هذه العلاقات السياسية والاقتصادية روابط ثقافية بين الرستميين و الأمويين في الأندلس، إذ أصبحت الدولة الرستمية الجسر الذي ضمن استمرار التدفق الحضاري من المشرق إلى بلاد الأندلس وعن طريق الرستميين نجح أمراء بني أمية في الأندلس في الحصول على ما يحتاجون إليه من كنوز المشرق و مؤلفاته و كذا علمائه، وبذلك فإن حكام تيهرت قد قاموا بدور الوسيط الثقافي حيث أخذوا عن المشرق وأعطوا للأندلس .

و نتيجة لهذا الدور الثقافي الذي اضطلع به الرستميون ظهرت مؤثرات إباضية في بلاد الأندلس إذ أنه من الطبيعي أن تترك هذه العلاقات القوية آثارها في الشعب الأندلسي وإن لم يكن لها من القوة ما يظهرها بشكل واضح نتيجة لسيطرة العقيدة السنية المطلقة على الأندلسيين، و قد ظهرت هذه التأثيرات في مناطق الاحتكاك التجاري بين الرستميين والأمويين في قرية بلفين (منطقة ألمرية) التي كان أهلها على مذهب الخوارج، وإلى الأندلس رحل كثير من علماء الدولة الرستمية، يسمعون على علمائها و يروون عنهم، و من هؤلاء قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي الذي يقول عنه الحميدي: "دخل الأندلس و كان من جلساء بكر بن حماد التاهرتي و ممن أخذ عنه، وهو والد أبي الفضل أحمد بن قاسم الذي يروي عنه أبو عمر بن عبد البر" (1) .

رابعاً: الأدب الرستمي:

(1) عبد القادر بوباية، علاقة الرستميين بالإمارة الأموية في الأندلس، مجلة التراث العربي، العددان 99، 100، تشرين الأول 2005م، رمضان 1426هـ، ص389.

يبدو أن اهتمام الرستميين بالعلم والعلماء، وبنائهم للمدارس وتشبيدهم للمكتبات، خاصة وأن بعض أئمة الدولة الرستمية قد تعاطوا العلم و الأدب، وكانوا حُكَّامًا وفي الوقت نفسه علماء ومدرسين؛ يلقون الدروس على الرعاية في المساجد، يبدو أن هذا الاهتمام كان له أثره الطيب على العلوم عامة، وعلى الأدب بصورة خاصة، فقد «نفق سوق العلوم و الأدب في ظل الدولة، و ظهر أول جيل من الأدباء الجزائريين الحقيقيين، عالجوا الشعر وأحسنوا معالجته، و لكن، ظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية المحافظة. و أساليب الشعر متينة بحيث لا نجد فيه اختلافا من حيث الصناعة عما يُعرف من شعر المشاركة على ذلك العهد. وأما الإنشاء فهو مرسل مطبوع لا يلتزم فيه سجع و لا يتكلف فيه توشية» (1) .

وقد شهدت فترة الرستميين ظهور أدباء جزائريين وطنا ومولدا، قالوا الشعر وأجادوا فيه وتناولوا النثر و برعوا فيه وذاع صيتهم خارج بلادهم ومنهم الشاعر التيهرتي مولدا و وفاة بكر بن حماد* و ابن الخراز**، وعموما فإنه «...لما كان القرنان الثاني والثالث

(1) محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص74.

* هو أ بوعبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي (200. 296هـ) ، نشأ بتيهريت و أخذ عن علمائها ، ثم انتقل إلى القيروان و منها إلى المشرق حيث طاف بحواضره العلمية الشهيرة ، عاد بعدها إلى القيروان وبعد مدة رجع إلى تيهريت وبها توفي .

** ابن الخراز من شعراء الجزائر في القرن الثالث الهجري ، رويت له مقطوعتان إحداها في المدح والثانية في ذم مدينة التنس الساحلية التابعة إداريا لولاية الشلف حاليا.

أخذ الجزائريون يفرضون وجودهم بإنتاج، في العلم والأدب والفنون، ولا يقل قيمة من إنتاج زملائهم في الشرق و إفريقيا والأندلس»⁽¹⁾.

أما في ميدان النشر فإنه ثبت أن للأئمة الرستميين رسائل وخطباً منها ما ثبت عن الإمام أفلح بن عبد الوهاب«...يتناولها بأسلوب سهل واضح يساير العصر ويواكب الظروف ويظهر فيها عبد الوهاب سياسياً محنكاً وناثراً حاذقاً وخطيباً بليغاً»⁽²⁾ ورسائل أخرى لعبد الوهاب بن عبد الرحمن ولأبي اليقظان محمد بن أفلح وغيرها من الرسائل التي كتبت في ذلك العهد واحتفظت بها المؤلفات التي تناولت فترة الرستميين بالدراسة وأرخت لدولتهم التي عمرت قرناً ونيف من الزمن(299/160 هـ) .

خامساً: فن الترسل في العهد الرستمي :

من خلال بحثي عما دَوّن في فترة حكم الرستميين لم يسعفني الحظ في الحصول على الرسائل التي كتبت في هذا العهد، إلا القليل منها وكتاب هذه الرسائل هم في الأغلب من أئمة الدولة الرستمية، والرسائل في مجملها ذات طابع سياسي فهي رسائل ديوانية، تتناول شؤون الدولة وسياسة الحكم في ذلك العصر، تحتكم إلى قواعد الكتابة الإنشائية المعروفة في الأدب العربي و تلتزم ببنية وهيكلية الرسائل كما نظّر لها النقاد القدامى، وسأحاول فيما يأتي من سطور أن أتحدث عن كتاب تلك الرسائل التي احتفظت بها بعض المصادر التي أرخت للدولة الرستمية، و مجمل هذه الرسائل وردت

(1) محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، مرجع سابق، ص101.

(2) نفسه، ص100.

في مؤلفات من مثل "الأزهار الرياضية" للباروني، و"كتاب سير الأئمة وأخبارهم" لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر، وكتاب "الإسلام و تاريخه من وجهة نظر إباضية" لابن سلام الإباضي و الكتب التي نقلت عنهم من مثل "تاريخ الأدب الجزائري" لمحمد الطمار و "الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور" لعبد المالك مرتاض وغيرهما من المتأخرين، ولئن كان مؤلِّفٌ مثل "كتاب سير الأئمة وأخبارهم" قد كتب في وقت سابق و كاتبه يصنفه الدرجيني من علماء الطبقة العاشرة (450 . 500 هـ) لعلماء الإباضية و لم يشتمل إلا على رسالتين قصيرتين عن ذلك العهد واحدة للإمام عبد الوهاب و أخرى لأبي الخطاب وسيم، وكذلك كتاب ابن سلام الإباضي الذي يصفه حسن حسني عبد الوهاب بأنه أقدم المؤرخين الإفريقيين والذي يشتمل هو الآخر على رسالتين واحدة للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن موجهة إلى أهل طرابلس، وثانية لأبي عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني إلى إخوانه من أهل المغرب، فإن الرسائل التي وردت بكتاب الباروني* . وهو كاتب حديث (1870 . 1940م) لم يشر إلى المصادر التي أخذ منها هذه الرسائل، بل نراه يكتفي بإيراد الرسائل فقط، وبعض تلك الرسائل لم ينقلها كاملة من مصادرها، وإنما نراه يقول بعد أن يذكر جزءاً من الرسالة: «ثم شرع في الرد عليه، وفي إبطال مسائله التي انتحل فيها الخلاف للمسلمين، بحجج واضحة وبراهين

* . سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني من مواليد جادو بجبل نفوسة بليبيا، عام 1287 هـ . 1870م أحد زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة، أخذ العلم عن أبيه ،انتقل إلى جامع الزيتونة، ثم إلى الأزهر الشريف، وفي عام 1895م انتقل إلى ميزاب ،وتخصص في العلوم الشرعية في معهد الإمام الشيخ أطفيش.

قاطعة وهي رسالة طويلة فاطلبها في غير هذا⁽¹⁾» وكلام مثل هذا قد يفتح باباً لتأويلات كثيرة ولا يحيلك على المصدر الذي نقل عنه.

كذلك لا نجد أثراً للرسائل التي كتبت و كانت هذه الرسائل ردّاً عليها، كما أنه توجد إشارات في كثير من الكتب التي أرخت لتلك الفترة إلى عديد الرسائل المكتوبة في ذلك العصر وإلى كتابها ولكن لاوجود لها بين طيات الكتب التي بحثت عنها فيها.

وقد تضمنت بعض الرسائل جملاً و عبارات من الرسائل التي بعثت إلى المرسلين سلفاً، منها ما جاء في رسالة الإمام أفلح إلى "نفاث بن نصر" « و أما قولك (تب مما كتبت به) فهو منك عبث »

كما أن بعضاً من الرسائل اشتملت على إشارات تدل على أن فعل الكتابة كان كثيراً في العهد الرستمي؛ منها ما ورد في رسالة للإمام "أفلح بن عبد الوهاب" في شأن "نفاث" يقول فيها: « و ذكرتم أمر نفاث، و أكثرتم فيه من الكتب و وصفتم عنه أشياء».

سادساً: أعلامه:

سأذكر فيما يأتي من سطور سِيرَ هؤلاء الذين بقيت الكتب تحتفظ ببعض رسائلهم، ولا شك أن كثيراً منها ضاع أو أُتْلِفَ أو ما زال يرقد في بعض الخزانات الخاصة، خاصة في جزيرة "جربة" التونسية حيث ينتشر المذهب الإباضي، وكذا في ليبيا

(1) الباروني، الأزهار الرياضية، مرجع سابق، ص263.

في جبل "نفوسة"، سأذكر سيرهم محترماً الترتيب التاريخي لظهورهم، و معتمداً على ما جاء في كتاب "معجم أعلام الإباضية"⁽¹⁾

الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن⁽²⁾: 171 . 208 هـ / 823.787م

عبد الوهاب بن عبد الرحمن، ثاني الأئمة الرستميين، كناه ابن عذاري بأبي الوارث، وهو الوحيد الذي أورد هذه الكنية.

تلقى العلم بالقيروان ثم بتيهت عن أبيه عبد الرحمن وغيره من حملة العلم. عاصر الربيع بن حبيب إمام الإباضية بالبصرة بعد أبي عبيدة و جابر بن زيد. عالم متضلّع من أكبر علماء زمانه، اشترى وقر أربعين بعيراً من الكتب من البصرة، فلما تصفحها وقرأها وأتمها قال: «الحمد لله الذي علّمني كل ما فيها من قبل، و لم أستاذ إلا مسألتين لو سئلت عنها لأجبت قياساً».

و قد تصدى للتدريس، فكانت له حلقات علم بتيهت وجبل نفوسة، و تخرج على يديه خلق كثير، منهم ابنه أفلح، فضلاً عن كثير من علماء نفوسة، حيث قضى بجبل نفوسة سبعة أعوام يلقي دروس الوعظ على العامة، وتذكر المصادر أنها فقه الصلاة. كان تاجراً بارعاً، لم تشغله تجارته التي مارسها في عهد أبيه، و لا الحكم الذي تولاه بعد ذلك، عن المطالعة، فكان من عادته إذا فرغ من صلاة العشاء أخذ كتاباً ينظر فيه.

(1) لجنة البحث العلمي في جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب من ق1 إلى ق15 هـ، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1420 هـ، 1999م.
(2) نفسه، ص 591 وما بعدها.

ولقد ترك عبد الوهاب كتابًا وصفه البرادي بأنه ضخّم وهو سفر تامّ، ألفه عبد الوهاب جوابًا لأهل نفوسة في مسائل و نوازل استفتوه فيها؛ يقول عنه ابن الصغير، مؤرخ الدولة الرستمية: «كان لعبد الوهاب كتاب معروف بـ"مسائل نفوسة الجبل"...و كان هذا الكتاب في أيدي الإباضية مشهورًا عندهم معلومًا، يتداولونه قرنًا عن قرن... فأخذته من بعض الرستميين فدرسته و وقفت عليه»، ولعل الكتاب المعروف اليوم بـ"مسائل نفوسة" (مط) جزء من هذا السفر.

بلغت الدولة الرستمية في عهد الإمام عبد الوهاب شأوا بعيدًا في الحضارة، فكانت لها علاقات الند للند مع الأمويين بالأندلس، ومع الأغالبة في إفريقية، ومع المدرايين في جنوب المغرب الأقصى، وعلاقات تجارية وطيدة مع الصحراء، ومع إباضية المشرق... فإذا كان عبد الرحمن بن رستم قد وضع أسس الدولة، واهتم بسياساتها الداخلية، فإن عبد الوهاب أعطى لها أبعادا أخرى، نعرفها من شهادة ابن الصغير، إذ يقول: «...كان ملكًا ضخّمًا، وسلطانًا قاهرًا... قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله ودان له ما لم يُدِنْ لغيره، من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله. حاصر مدينة طرابلس، ومأى المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان...». والإمام عبد الوهاب، هو الإمام الأكثر ذكرًا في المصادر- الإباضية وغيرها- ولعل ذلك يعود إلى التأثير الكبير الذي تركه في الحياة الدينية والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والعسكرية... فقد اتسعت دولته من

حدود مصر شرقاً، إلى مدينة تلمسان في أقصى المغرب الأوسط غرباً، بل إن هيمنته شملت في بعض الأحيان دولة بني مدرار في المغرب الأقصى...

وفي عهده الذي دام سبعة وثلاثين سنة (171-208 هـ) عرف الرستميون قمة مجدهم الحضاري في الداخل والخارج، نشطوا الزراعة، وقرّوا أسبابها، وروّجوا التجارة، ووفروا لها الأمن، وزهت الحياة الثقافية وارتقت، فقصد عاصمة الرستميين العلماء و الطلبة والناس من مختلف المذاهب، وسمحوا بحرية التعبير والفكر، فتنافست التجارة والثقافة في أدوار لا تزال بحاجة إلى البحث والدراسة من قبل الباحثين والأكاديميين.

وفي عهد عبد الوهاب انقسم الإباضية إلى فرقها المغربية المشهورة مثل فرقة النُّكَّار التي أنكرت إمامة عبد الوهاب، والخَلْفِية التي حاولت الانشقاق عن جسم الإمامة، والوَهْبِية التي بقيت مخلصَةً للإمام والإمامة، حتى قيل: إن النسبة في اسم «الوهبية» هي للإمام عبد الوهاب، رغم أنها نسبة على غير قياس.

وفي عهد عبد الوهاب ظهرت المعتزلة فناظرها، وحاول دحض أفكارها، واستمد العون من نفوسة، لمناظرة هذه الفرقة العقلية...

و قام بعدة حروب دفاعية ضد من ناصب الرستميين العداء، بعد استتفاذ الوسائل السلمية، فلم ينهزم له جيش، ولم تسقط له راية.

كان الإمام عبد الوهاب رجل علم وحُكم وقيادة، ساس الرعية فدانت له، وناظر المنشقين فكان الحاكم الحكيم، وقاد الجيوش فكان البطل، وأدار دواليب الدولة فدرّت له مجداً وتألّفاً...

دبر له أعداؤه مكيدة اغتيال باءت بالفشل. وتوفي سنة 208هـ/823م، تاركاً الدولة قويةً مهيبة السلطان، وخلفه ابنه أفلح في الإمامة بلا ولاية للعهد سابقة ولكن بترشيح من أصحاب الحل والعقد.

أفلح بن عبد الوهاب⁽¹⁾: (حكم بين: 258.208هـ/871.823م)

أفلح بن عبد الوهاب، ثالث الأئمة الرستميّين. تلقى العلم بتيهت عن أبيه عبد الوهاب، وعن جده عبد الرحمن وعن غيرهما من مشايخ تيهت. كان عالماً من أكبر علماء زمانه، فقيهاً وشاعراً، وقد تصدرّ صغيراً للتدريس، وإلقاء العلوم على اختلاف فنونها، فقعد بين يديه أربع حلق: في الفقه، والأصول، واللغة، وعلم الكلام؛ وتخرج في مدرسته جمعٌ من العلماء منهم: ابنه أبو اليقظان، وأبو بكر، ونفاث بن نصر النفوسي، وسعيد بن وسيم بن يونس الويغوي النفوسي...

كان من العلماء المشهورين و المعدودين، انفرد بآراء في علم الكلام، واعتبر لذلك إماماً، و ترك العديد من الرسائل العلمية.

له جوابات وفتاوى في النوازل؛ كما أنه له اهتماما بالحديث و روايته.

(1) لجنة البحث العلمي في جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، ص120 وما بعدها..

من مؤلفاته ما طبع والكثير في حيز المخطوط. وفي سؤالات السوفي روايات فقهية وفتاوى رويت عنه؛ وقد بلغ في حساب الغبار والنجاسة مبلغاً عظيماً؛ وكان إلى ذلك كله شاعراً مجيداً، له قصيدة رائية رائعة في التحريض على طلب العلم مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يريك شخوصهم رَوْحاً و إيكارا
بلغت الدولة الرستمية في عهده من الرقيّ مبلغاً كبيراً، و وصلت إلى أوج
ازدهارها، يقول ابن الصغير عن الإمام، وكذا الباروني: «عمر في إمارته ما لم يعمره أحد
ممن كان قبله، و أقام خمسين عاماً حتى نشأ له البنون و بنو البنين، و شمش في
ملكه، و ابنتي القصور، و عمرت معه الدنيا، و كثرت الأموال، و أنته الرفاق و الوفود من كل
الأمصار و الآفاق بأنواع التجارات».

لقد أدار أفلح الإمامة بكياسة ومهارة، وعدل ودهاء نصف قرن كامل، و في رواية
ستين عاماً، و لقد عاصر بذلك ستة من الخلفاء العباسيين
هم: الرشيد، و الأمين، و المأمون، و المعتصم، و الواثق، و المتوكل.

ويبدو أن هذا هو الذي أدّى بالشيخ علي يحي معمر إلى القول: «ولعل الإمام أفلح
يعتبر أعظم من تولّى الإمامة في المغرب الإسلامي، وأنا حين أطلق هذا الحكم أضع
في الاعتبار مراعاة التطبيق لأحكام الإسلام، و تنفيذها مع طول المدة، و إقبال
الدنيا، و فيضان الثروة بين جميع الطبقات... كان إذا وعد وفى، وإذا قال عمل، و إذا أمر
بالإحسان ائتمر، يقيم الحدود ويقف عند النواهي للدين، و لا تأخذه في الله لومة لائم».

وفي عهده تمّ القضاء على الثورة التي قامت في نفوسة، أيام والده عبد الوهاب، ثورة خلف بن السمح، كما ظهرت "النفائية" نسبة إلى تلميذه نفاث بن نصر، الذي انتقده في سيرته، واتهمه بالبذخ في حكمه... إلا أن نفاثاً تاب ورجع عن أقواله.

كان الإمام أفلح رجل علم وسياسة وقيادة و دولة، علم فعلم، وساس الرعية فدانت له، وقاد الجيوش فكان البطل، وأدار دواليب الدولة، فدرت له مجداً وتألقاً وحضارة. توفي سنة 258هـ/871م على أكثر تقدير، وخلفه ابنه أبو بكر، وكان ابنه الأكبر في سجن العباسيين آنئذ، قبضوا عليه في موسم الحجّ.

محمد بن أفلح بن عبد الوهاب [أبواليقظان]⁽¹⁾ (حكم: 261.281هـ/874.894م)

خامس الأئمة الرستميّين، وواسطة العقد عدداً، ولد بتيهert و نشأ بها تلقى العلم عن أبيه أفلح، و جده عبد الوهاب، و كان كما وصفه ابن الصغير - أحد معاصريه: «مربع القامة، أبيض الرأس واللحية، زاهداً ورعاً ناسكاً».

كانت له حلقات علم بتيهert الرستمية، تخرج على يديه الكثير من الأعلام، وكان من المكثرين في التأليف، له «رسالة في خلق القرآن»، وكتب في الرد على المخالفين، و ألف في الاستطاعة وحدها أربعين كتاباً (ربما يقصد به المؤرخون جزءاً أو رسالة)، وله رسائل عديدة، وجوابات مختلفة، منها ما وصلنا، وأغلبها عبثت به يد الأيام.

(1) لجنة البحث العلمي في جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، ص752 وما بعدها.

تولى الخلافة سنة 261هـ/874م، وهو الراجح، وبعض قال 241/855م، ليجعل من حكمه أربعين سنة، لأن ابن الصغير أكد وفاته سنة 281هـ/894م.

وقد ابتلي بالإمامة في ظروف صعبة جدًا، إذ ترك له أخوه أبو بكر الأمة متاحة، بعد أن عصفت بها فتنة ابن عرفة، لذلك لم تستقر له الإمامة إلا سبع سنين قضاها في تنظيم و تصفية صفوف المجتمع من آثار الفتنة، فإليه يرجع الفضل في القضاء عليها و بث الأمن والسلم والطمأنينة.

لم يدخل أبو اليقظان تيهرت منتصرًا، ومعلنًا نهاية فتنة ابن عرفة، و رافعًا شعار «عفا الله عما سلف» إلا في سنة 268هـ/281م، حيث عقد صلحًا مع القبائل كلها وشمر عن ساعد الجد، ليواصل مسيرة أبيه أفلح وجديه عبد الوهاب وعبد الرحمن، وينقذ البلاد من الفوضى، ويعيد لها هناءها و ازدهارها.

و تذكر المصادر أنه سجن ببغداد مع أخ لخليفة عباسي قبل توليه الحكم سنة 261هـ/874م، قبض عليه عيون بني العباس في موسم الحج أثناء أدائه للفريضة، وقضى في سجن بغداد سنين عددا، و تعلم خلالها الكثير من فنون السياسة و الكياسة، خاصة و أنه كان مع أمير استدعي بعد خروجه من السجن لتولي الخلافة . لعله المعتمد العباسي .، الأمر الذي جعل الأمير يطلق سراح أبي اليقظان، ويسهل له العودة إلى وطنه بالمغرب، ليتولى هو الآخر الإمامة في دولته.

وكانت أيام أبي اليقظان لا تشبه إلا بأيام جده عبد الرحمن في الحكم، والعلم، والعدل، والورع، واتفاق الكلمة بعد اختلافها.

و عرفت الدولة الرستمية في عهده انفتاحًا كبيرًا على العلم والعلماء، حيث اهتم فقهاء المذاهب المختلفة بالمناظرات الفقهية والكلامية، وكثرت المجالس والحلقات.

توفي سنة 281هـ، ولم يترك تجاوز تركته سبعة عشر دينارًا، وخلف من الأولاد الذكور عددًا منهم: ابنه اليقظان الذي يكنى به، ويعقوب أحد الأئمة الرستميين من بعد، ويوسف وأبو خالد وعبد الوهاب و وهب.

(أبو الخطاب) وسيل* بن سينتين الزواغي⁽¹⁾:

من أعلام قبيلة زواغة بجبل نفوسة، نشأ بها ثم انتقل إلى زويلة بليبيا، وفيها لقي أبا نوح سعيد بن زنغيل، وعبد الله بن زوزتن، وأبا الربيع سليمان بن زرقون، فأخذ عنهم العلم. كما عاصر أبا أيوب بن كلابة الزواغي بـ«ريضة».

وهو عالم مقدم في قومه، تولى القضاء بمدينة «ويضو». أو «بريمو»..

بنى مسجدًا بـ«تاصروت» وهو مسجدٌ بقي أثره إلى عهد الدرجيني (ت: 670هـ/1271م) يعرف بـ«مسجد وسيل».

* ورد وسيم، والراجح ما أثبت.

(1) لجنة البحث العلمي في جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، ص 934.

وبعد وفاته قالت امرأة معافرية من ذرية أبي الخطاب عبد الأعلى(ت:144هـ/761م):«لمّا مات أبو الخطاب[وسيل]مات الحق،فبقيتُم يا زواغة هائمة،ببطنون كالأخرجة،وعمائم كالأبرجة،ونعال مبلجة،وأحكام متعرجة».

والملاحظ أن معظم هؤلاء الأعلام ينتمون إلى البيت الرستمي الذي حكم الدولة وقد كانوا إلى جانب ممارسة الحكم،علماء أو أدباء.

سابعا:موضوعاته:

لاشك أن فترة بني رستم شهدت ازدهار فن الكتابة،ذلك أنها كانت دولة فتية وفي حاجة إلى بسط سلطانها على الأقاليم والولايات التي تحت قبضتها،ولم يكن من وسيلة للاتصال في ذلك الزمان غير الرسائل بما تحمل من تعليمات وأوامر لولاية تلك المناطق،فقد كانت الرسائل بمثابة المراسيم والتعليمات الرسمية التي تصدر عن السلطة الحاكمة،لكن تلك الرسائل المفترض أنها تُبَوِّدَت بين أئمة الدولة الرستمية وولاتها، لم يبق منها إلا النزر القليل بعد أن عاثت فيها يد البشر فسادًا،أما ما يسمى بالرسائل الإخوانية فلم يبق منها لا قليل و لا كثير ولا شك أنها هي الأخرى كانت موجودة وتبادلها الأصدقاء والإخوان والعلماء فيما بينهم على عادة أهل ذلك الزمان،وفيمَا يخص الرسائل الديوانية فإنها تناولت الموضوعات التي تهم شؤون الدولة الرستمية وما كان يجري فيها؛فبعضها تكلم عن الفتن التي حدثت في ذلك الوقت مثل رسائل الإمام أفلح في شأن نفاث بن نصر النفوسي،والرسائل الموجهة إلى نفاث نفسه،ومنها ما

تطرق إلى العقيدة و وجوب التمسك بالدين مثل رسالة الإمام عبد الوهاب إلى أهل أطرابلس، ومنها ما كان موجهاً إلى جماعة المسلمين بالنصح والتوجيه مثل رسالة أفلح إلى من كان تحت لوائه من المسلمين، والملاحظ أن تلك الرسائل يغلب عليها طابع الوعظ والإرشاد والتوجيه الديني الذي ميز الحكم الرستمي.

ثامناً: خصائصه البنائية:

لم تخرج الرسائل الرستمية عن الهيكل البنائي المعروف لفن الترسل في الأدب العربي؛ فقد اشتملت على مقدمة ومضمون وخاتمة، وفيما يأتي من كلام سنتحدث عن كل عنصر من تلك العناصر و ما تضمنه.

أ . المقدمات:

تضمنت مقدمات الرسائل الرستمية ما كان متعارفاً عليه في ذلك الوقت، فكانت تشمل بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ والمرسل والمرسل إليه . وفي بعضها. الحمد والثناء على الله بما هو أهله وسؤاله الصلاة على الرسول الكريم، ومن أمثلة المقدمات⁽¹⁾ ما جاء في رسالة الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد، حيث يقول بعد البسملة:

« من أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد، سلام الله عليك وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده و رسوله ﷺ و على آله. »⁽²⁾

(1) ينظر نصوص هذه الرسائل في الملحق الخاص بها في آخر هذا البحث.

(2) ينظر نص الرسالة في الملحق صفحة 125 من هذا البحث.

و ما جاء في رسالة محمد بن أفلح إلى جميع رعيته إرشادًا ونصحًا، يقول بعد
البسمة:

« من محمد بن أفلح إلى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين، سلام عليكم و إني
أحمد الله الذي لا إله إلا هو، و أسأله الصلاة والسلام على نبي الرحمة وهادي الأمة،
صَلَّى الله عليه و على آله و سلم. »⁽¹⁾

ومن النماذج كذلك رسالة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن التي يقول فيها بعد
البسمة: « وهذه شريعة رسالة كتب بها عبد الرحمن بن عبد الوهاب إمام تاهرت إلى
أهل أطرابلس. »⁽²⁾

ب . المضمون:

يقع الانتقال من المقدمة إلى المضمون في الرسائل الرستمية بصيغة أما بعد، وهي
حسن تخلص من المقدمة للولوج إلى موضوع الرسالة؛ وقد كانت موضوعات الرسائل
الرستمية التي تمكنت من الحصول عليها تصب في قالب ديني وسياسي، وذلك لأنها
كلها رسائل ديوانية أشارت إلى بعض ما حدث في تلك الفترة من حكم بني رستم، كما
في رسائل الإمام أفلح بن عبد الوهاب في شأن "نفاث" *، ورسالة الإمام عبد الوهاب إلى
جبل نفوسة في مسألة "خلف بن السمح" وبعض من تلك الرسائل كان موضوعه
وعظمي ديني مثل رسالة عبد الوهاب إلى أهل أطرابلس يعرفهم فيها الإسلام ويدعوهم

(1) ينظر نص الرسالة في الملحق صفحة 139 من هذا البحث.

(2) ينظر نص الرسالة في الملحق صفحة 123 من هذا البحث.

* - هي ثلاث رسائل موجودة في الملحق الخاص بالرسائل في آخر هذا البحث.

إلى التمسك بالشرعية وموالاته أهل الهدى والبراءة من أهل الضلالة، وبعضها كان موضوعها نصح وإرشاد وتوجيه من أئمة بني رستم إلى ولاتهم ورعيته كما في رسالة أفلح إلى البشير بن محمد ينصحه ويوجهه ويحذره في الوقت نفسه.

ج . الخاتمة:

لم تخرج خواتم رسائل بني رستم عما كان معروفاً في نهايات الرسائل الأدبية، حيث نجد بعضها يختتم بجملة أمرية تفيد النصيحة مثل ما جاء في رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة خلف: « وتوبوا إلى ربكم، وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون. »⁽¹⁾ وكذا ما ورد في رسالة الإمام أفلح إلى البشير بن محمد: «فاتق الله واجتهد جهديك في توفير الحقوق و توجيهها إلينا على هذا مضى من كان قبلك»⁽²⁾ كما خُتِمَ بعضها بالدعاء و الصلاة على النبي ﷺ، كما في إحدى رسائل الإمام أفلح: «عصمنا الله و إياكم و رزقنا العمل بطاعته فإنه ولي ذلك، ومنتهى الرغائب لا شريك له و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله و سلم»⁽³⁾ و اختتمت أخرى بالدعاء والسلام مثل ما جاء في رسالة أفلح إلى عامة المسلمين: «و الله أسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته و القيام بحقه برحمته إنه قدير والسلام عليكم ورحمة الله»⁽⁴⁾ وكلها لا تخرج عما عرف من خواتم في الرسائل في الأدب العربي.

(1) ينظر نص الرسالة في الملحق صفحة 124 من هذا البحث.

(2) ينظر نص الرسالة في الملحق صفحة 126 من هذا البحث.

(3) ينظر نص الرسالة في الملحق صفحة 127 من هذا البحث.

(4) ينظر نص الرسالة في الملحق صفحة 139 من هذا البحث.

وبعد أن تعرفنا على فن الترسل في العهد الرستمي، وعرفنا أعلامه الذين لم تحتفظ لنا كتب الأدب والتاريخ إلا بالقليل مما أنتجوه، وعرفنا كذلك موضوعاته وخصائصه البنائية فإننا ننتقل إلى دراسته أسلوبياً، في الفصل الموالي.

الفصل الثالث

مقاربة أسلوبية لفن الترسل الرستمي

الفصل الثالث

أولاً: المقاربة الأسلوبية أ . توطئة

ب . تعريف الأسلوب لغة و اصطلاحاً

ج . ثوابت المقاربة الأسلوبية

ثانياً: المقاربة الصوتية

ثالثاً: المقاربة التركيبية

سمات أسلوبية في الرسائل الرستمية

أتركيب الجمل: (1) الجمل الاسمية (2) تركيب الجملة الفعلية

ب . التوكيد ج . تراكيب الإضافة

د . التراكيب الإنشائية:

(1) الاستفهام (2) الأمر (3) النهي

هـ . اسم الفاعل واسم المفعول

رابعاً: ا: المقاربة الدلالية : أ . الحقول الدلالية: (1) حقل الألفاظ الدينية

(2) حقل الألفاظ الدالة على الحكم و الولاية والبراءة

(3) حقل الألفاظ الدالة على النصيح و التوجيه

خامساً: ظاهرة التناص في الرسائل الرستمية

خاتمة

أولاً:المقاربة الأسلوبية:

أ . توطئة:

أحدثت المناهج الحديثة تغييرا جذريا في مجال الدراسات النقدية الأدبية، وخصوصاً النصوص قديمها و حديثها،حتى تعددت القراءات و اختلفت وتباينت،وقد خاض هذا المجال كثيرٌ من النُّقاد و الدارسين قدموا دراسات لنصوص من الأدب القديم والحديث،حللوها وفق المناهج النقدية الحديثة كالأسلوبية والسيمائية،والتفكيكية وغيرها فكانت هذه الدراسات تنمُّ عن بعد نظر وعمق تحليل،وقف من خلالها هؤلاء على جزئيات كثيرة في تلك النصوص، كانت بداية تحوُّل قاد إلى ثورة في المفاهيم،وصار يُنظر إلى الإبداع على تعدد أنواعه ومضامينه نظرة نقدية فاحصة تمكنت من كشف كثير من الغوامض و استجلت حقائق عديدة،ومن المناهج التي اهتمت بتحليل النصوص الأدبية المنهج الأسلوبي الذي اعتمدته في دراستي لأدب الترسل في العهد الرستمي،وتطبيقه على نصوص الرسائل التي كتبت في ذلك الزمن وبيان . ما أمكنني ذلك . ما انطوت عليه تلك النصوص من سمات أسلوبية،و ما عبرت عنه،وماذا استعمل كتابها من أساليب؟وكيف عبروا عن ذلك؟ وما هي دلالات تلك الاستعمالات؟

وأعتقد أنه الأنسب من بين المناهج الأخرى، ولا بد لنا قبل أن نلج إلى تحليل الرسائل التي كتبت في العهد الرستمي أن نعرف معنى الأسلوب في اللغة

والاصطلاح، و نعرف رواد هذا المنهج النقدي، و أسس التحليل الأسلوبي، وخطواته من وجهة نظرية.

ب . تعريف الأسلوب لغة واصطلاحًا:

جاء في لسان العرب لابن منظور: « يقال للسطر من النخيل و كل طريق ممتد فهو أسلوب، فالأسلوب هو الطريق و الوجه و المذهب، ويقال أنتم في أسلوب سوء... ويقال أخذ في أساليب من القول أي أفانين منه. »⁽¹⁾

أما ابن خلدون في مقدمته فيرى « إنه عبارة عن المنوال التي تتسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة الإعراب و لا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي وظيفته البلاغة و البيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب»⁽²⁾ و يضيف «هو الصورة التي ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب الصحيحة باعتبار الإعراب و البيان فيرصها فيه رصًا. »⁽³⁾

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، مرجع سابق، مادة سلب.

(2) ينظر ابن خلدون ،المقدمة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت لبنان ط1، 1424هـ،

2004م، ص571

(3) نفسه، ص570.

أما التعريف اللغوي للأسلوب عند الغربيين فإن كلمة «style الإنجليزية أي أسلوب، يعود إلى اللغة اللاتينية ،حيث كان يعني عصا مدببة ،تستعمل في الكتابة على الشمع» (1)

هذا من حيث التعريف اللغوي للأسلوب، أما اصطلاحاً فإن تعريفات الأسلوبية تعددت إلى درجة لا يمكن معها حصر كل التعريفات التي ذكرت، لكن سنحاول أن نكتفي بما نرى أنه من الضروري ذكره ،و لتكن نقطة انطلاقنا من بداية استعمال هذا المصطلح، فقد ...كان الكونت "دي بيفون"(1707- 1788م) أول كاتب فرنسي صرف اهتمامه للأسلوب،و رفع منزلته في كل بناء أدبي،وقد عرفه في خطابه الذي ألقاه أول دخوله عضواً في الأكاديمية الفرنسية،بقوله: « ليس الأسلوب سوى النظام والحركة اللتين يضعهما المرء في أفكاره ... الأسلوب هو الرجل نفسه» وقد أصبح قوله هذا معروفاً في جميع الأوساط و الدراسات اللغوية.(2)

وبالنظر إلى الفترة التي عاش فيها" دي بيفون" فإن تاريخ الأسلوبية يمتد إلى القرن الثامن عشر،وقد « حاولت الأسلوبية في تاريخها الطويل أن تكون منهجاً نقدياً يسعى إلى معاينة النصوص الأدبية بالاعتماد على النسيج اللغوي الذي يتشكل منه النص،مفيدةً من الألسنية في الكشف عن وظائف اللغة في تجلية المعنى الذي قصد

(1) محمد كريم الكواز، علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات، منشورات جامعة السابع من أبريل،ليبيا، ط1،

1426هـ، ص53.

(2) لجنة من المؤلفين، في النقد الأدبي، مؤسسة ناصر للثقافة، ط1، 1981م، ص89.

إليه المؤلف،و إذا كانت ثمة فوارق أساسية بين العلمين فإن الأسلوبية ركزت بشكل أساسي على الأثر الذي تتركه اللغة في المتلقي»⁽¹⁾

وقد ركزت الأسلوبية بشكل كبير و مكثف و مباشر على عملية الإبداع والإفهام،هذا إلى جانب اهتمامها الجوهرية و الأساسي؛وهو التأثير في المتلقي / القارئ .

وإذا كان"دي بيفون"سباقاً إلى فكرة الأسلوب فإن "شارل بالي" (1865/1947م) يعدُّ مؤسس علم الأسلوب معتمداً في ذلك على دراسات أستاذه فرديناند دي سوسير،لكن "بالي" تجاوز ما قال به أستاذه،و ذلك من خلال تركيزه الجوهرية على العناصر الوجدانية للغة،أما لساني مثل "ياكبسون" فيعرف الأسلوبية بقوله:« إنها البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً،وعن سائر الفنون الإنسانية ثانياً «⁽²⁾.

لأن الأسلوبية لا تشغل إلا على الكلام الفني دون غيره،فالأسلوبية إذا تخرج العامة و اللغة الشفوية و اللغة غير الفنية من الكلام الفني . وهو مجال دراستها. «⁽³⁾

أما ميشال ريفاتير فيقول عن الأسلوبية:« إن القارئ يجلّي الأسلوب بفعل الأثر الذي يتركه ،فالأسلوب يستأثر بانتباه القارئ و اهتمامه عبر ما يفضيه في سلسلة

(1) موسى سامح رابعة، الأسلوبية مناهجها وتجلياتها،دار الكندي ،الأردن،ط1، 2003م،ص9.

(2) نفسه،ص8.

(3) نفسه،ص15.

الكلام، والقارئ بدوره يستجيب للأسلوب فيضيف إليه من نفسه عن طريق رد الفعل الذي يحدثه فيه»⁽¹⁾

وبذلك فإن الأسلوبية تتخذ كمجال لبحثها « الخصائص الفنية الجمالية التي تميز النص عن آخر، أو الكاتب عن آخر، من خلال اللغة التي يحملها خلجات نفسه، وخواطر وجدانه، قياساً على هذه الأمور مجتمعة، تظهر الميزات الفنية للإبداع، إذ منها نستطيع تمييز إبداع عن إبداع انطلاقاً من لغته الحاملة له بكل بساطة، ومن ثم فالأسلوبية تحاول الإجابة عن السؤال: كيف يكتب الكاتب نصاً من خلال اللغة؟ إذ بها و منها يتأتى للقارئ استحسان النص أو استهجانه، كما يتأتى له أيضاً الوقوف على ما في النص من جاذبية فنية تسمو بالنص إلى مصاف الأعمال الفنية الخالدة »⁽²⁾

وبطريقة أخرى فإن «...معظم الأسلوبيين قد أقروا . كتوجه عريض . بأن الأسلوبية هي الإجابة عن السؤال: كيف عبّر النص عن دلالاته الجزئية والكلية؟»⁽³⁾ وبالإضافة إلى هذا فإن الأسلوبية كمنهج « تترصد مكامن الجمال والفنية في الآثار الأدبية وما

⁽¹⁾ طارق البكري، الأسلوبية عند ريفاتير، مجلة الموقف الأدبي، عدد 402، تشرين الأول 2004م، نسخة إلكترونية من

موقع اتحاد الكتاب العرب . www.awu-dam.org

⁽²⁾ محمد بلوحي، بين التراث البلاغي العربي و الأسلوبية الحداثية، مجلة التراث العربي، ع 95، أيلول 2004م، رجب 1425هـ، نسخة إلكترونية من موقع اتحاد الكتاب العرب . www.awu-dam.org

⁽³⁾ عدنان حسين قاسم، الاتجاه البنوي في نقد الشعر العربي، الدار العربية للنشر والتوزيع، 1421هـ،

تحدثه من تأثيرات شتى في نفس القارئ،لما تسمو هذه الآثار عن اللغة النفعية

المباشرة،إلى لغة إبداعية غير مباشرة،فنية وأكثر إحياءً وتلميحاً»⁽¹⁾

كما أن الأسلوبية تهتم بدراسة المستويات الصوتية والتركيبية والدلالية ومن خلال ذلك

تقف على اكتشاف السمات الأسلوبية لأدب ما أو لفترة من الفترات أو كاتب من

الكتاب،وهي . الأسلوبية . «بشكل عام منهج يدرس النص و يقرأه من خلال لغته وما

تعرضه من خيارات أسلوبية على شتى مستوياتها:نحويًا،ولفظيًا،وصوتيًا،وشكليًا،وما

تفرده من وظائف و مضامين ومدلولات وقراءات أسلوبية لايمتُ المؤلف بصلة مباشرة

لها على أقل تقدير»⁽²⁾

كما أن البحث الأسلوبي«ينطلق في مقارنته للنص الأدبي من المقولات التالية:الاختيار-

التركيب . الانزياح.

الاختيار:

اعتبر حدًا فاصلاً بين "الجمالي"و "غير الجمالي"؛فالكلام لا يمكن أن يكتسب

صفة الأسلوبية(إلا إذا تحققت فيه جملة من "الظواهر أو المسالك التعبيرية التي يؤثرها

الشاعر أوالأديب دون بدائلها التي يمكن أن تسد مسدها) ... و الاختيار يجعل من

⁽¹⁾ نفسه،ص108.

⁽²⁾ محمد بلوحي،الأسلوب بين التراث البلاغي العربي و الأسلوبية الحديثة،مجلة التراث العربي،ع 95،أيلول

2004م، رجب 1425هـ . نسخة إلكترونية من موقع اتحاد الكتاب العرب .www.awu-dam.org

الأسلوب عملاً واعياً وقصدياً. فكل علامة لغوية تقوم بوظيفتها التي حددها لها المبدع.

التركيب

يعتبر طرفاً فاعلاً في عملية الخلق الأدبي؛ إذ به تكتمل صورة التعبير اللغوي ويخرج من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل، و التركيب هو مظهر الأدبية؛ "ذلك أن الجمال في النص الأدبي، إنما يعود إلى العناصر البنائية متضافرة ومتفاعلة لا إلى عنصر بعينه منه .

الانزياح:

يعد مؤشراً نصياً على أدبية النص أو شعريته؛ ذلك أن الخروج عن النسيج اللغوي في أي مستوى من مستوياته، الصوتي، التركيبي، الأسلوبي، البلاغي، يمثل في حد ذاته حدثاً أسلوبياً. كما أنه يرتبط بالنص "الرسالة" ويتخذ أشكالاً و صوراً كأن يكون "خرقاً للقواعد" أو "لجوءاً إلى ما تدرس الصيغ" وقد يكون "الانحراف بتكرار الملحظ الأسلوبي على غير المؤلف كالإسراف في استخدام الصفات" ⁽¹⁾

ومع كل هذا فإن الأسلوبية لا يمكن اعتبارها النموذج المثالي لتحليل النصوص الأدبية و الوقوف على مكونات تلك النصوص، والوصول إلى الغايات المتوخاة من دراسة وتحليل الإبداع الأدبي ، لأن نظرة الناس تختلف، وبفضل هذا الاختلاف فإننا نصل في

(1) حسين بوحسون، الأسلوبية والنص الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، عدد 378، تشرين الأول

كل مرة إلى قراءة متجددة للنصوص الإبداعية، ولذلك فإنه « لا تسلم القراءة الأسلوبية من الخطل، إلا إذا عثرت على أسلم السُّبُل للولوج إلى عوالم النص، لذا كانت الانطلاقة حجر عثرة في طريق التحليل الأسلوبي، وهل تكون البداية من الصوتي، ثم الصرفي، على منوال النموذج اللغوي؟ أم أن إدراك الصوتي يحتاج إلى وقفات متأنية لاكتشاف الصوت الطاعي في العمل الأدبي والذي يضيف جواً جرسياً ما على جملة النص و دلالتة»⁽¹⁾

ج . ثوابت المقاربة الأسلوبية:

تعتمد المقاربة الأسلوبية على ثوابت معينة، لا يكون لها معنى إلا بها ،منها:⁽²⁾

1/الانطلاق من الظواهر اللغوية خاصة،ومن مختلف مواد البناء والأداء في الكلام عامة،وتركيز النظر في كفيات التعبير المفصحة عن صور الشعور والتفكير،سواء ما تعلق منها بالمفردة أو التركيب،أو الصوت،أو بالمعنى،أو بالصيغة،أو بالدلالة،أو بالحركة،أو بالصورة،أو بنوع النص أو شكله،أو بجنس الكتابة أو غرضها،و يكون الاعتماد على الظواهر الموظفة توظيفاً جديداً،لا على الظواهر المستعملة استعمالاً عادياً،طبق أوضاع اللغة و تقاليد الكتابة والمألوف من قواعد التواصل.

2/التمهيد للتحليل الأسلوبي بأعمال تحضيرية،ليست من صميمه،أهمها حل الإشكالات العالقة عن الفهم،وتحديد الموازين التي بها تعرف قيم الظواهر،لتطرح من الحسابات

(1) حبيب مونسي،القراءة والحادثة مقارنة الكائن والممكن،منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000م،ص170.

(2)ينظر محمد كريم الكواز،علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات،منشورات جامعة السابع من أبريل،ط1، 1426هـ،ص120 وما بعدها.

كل ظاهرة مستعملة على غير وجه التوظيف الجمالي، ومعرفة ما استقر عليه العرف في الوضع اللغوي والدرس النقدي والتاريخ الأدبي، استعدادًا لتحديد مظاهر الأسلوب، و عناصر الإضافة ومواطن الإبداع التي تقدمها النصوص المدروسة.

3/ التحقيق في وضع الظواهر المختارة: هل يصدق عليها وصف الظواهر الموظفة؟ وما مسوِّغ ذلك فيها؟ وما الذي يصوِّر مدى التوظيف الذي جعلت له وأثره في بنية النص ودلالته؟ ذلك لأن المحلل الأسلوبي لا يسلم بأدبية النص أو شعرية الشعر تسليمًا؛ وإنما هو ينحو منحى البحث و المناقشة و المساءلة قبل الاطمئنان إلى أي نتيجة من نتائج التحليل.

4/ ليست المقارنة الأسلوبية بحثًا في الموافقات، ولا في المفارقات، أي أنه لا تتأسس على ما في النص مما يوافق كونًا موجودًا من القواعد و تقاليد الكتابة، و المعاني المقصودة و الانطباعات الحاصلة، أو ما يخالف شيئًا من ذلك في النص نفسه؛ وإنما هي تتأسس على ما فيه من إنجاز الكلام موافقًا كان أو مخالفًا لإنجازات معروفة، ويؤسس كونًا جديدًا خاصًا بالنص المدروس.

وعليه سوف أحاول ما استطعت إلى ذلك سبيلًا أن أتناول هذه الرسائل في مقارنة أسلوبية في ضوء هذا المنهج، الذي يعنى بدراسة النصوص الإبداعية؛ باعتبارها رسائل لغوية بين المرسل والمرسل إليه ويستعين المبدع بها لتمرير وتوصيل ما يريد، ومن ثمَّ

يأتي الدرس الأسلوبي موظفًا مفاهيم علم اللغة العام لمعرفة الخصائص الجمالية للنص الأدبي.

ثانيًا: المقاربة الصوتية:

إنَّ المقاربة الصوتية هي إحدى مستويات التحليل الأسلوبي، وركن مهم وأساسي فيه باعتبار الأسلوبية تهتم في دراستها للنصوص الإبداعية بالانطلاق من لغتها واللغة كما يعرفها أبو الفتح بن جني: «حدها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»⁽¹⁾ و سنحاول أن نتناول هذا الجانب من الدراسة انطلاقًا من الحروف التي تشكل الكلمات وما يلاحظ عليها، خاصة مسألة التكرار وما يحمله من معانٍ و دلالات، فقد تكررت بعض الحروف في مجموعة من الألفاظ بشكلٍ لافت و ضمن مساحة ضيقة مما ينتج عنه موسيقى يحدثها هذا التكرار ودلالة تومئ إليها، وتأثير في المتلقي يشعر به ،ذلك أنه «قد يتكرر حرف بعينه أو حرفان أو ثلاثة حروف بنسب متفاوتة في جملة شعرية. وقد يتعدد أثر هذا الأمر فهو إما أن يكون لإدخال تنوع صوتي يخرج القول عن نمطية الوزن المألوف ليحدث فيه إيقاعًا خاصًا يؤكد، وإما أن يكون لشد الانتباه إلى كلمة أو كلمات بعينها عن طريق تآلف الأصوات فيها . وإما أن يكون لتأكيد أمر اقتضاه القصد فتساوت الحروف المكررة في نطقها له مع الدلالة في التعبير عنه »⁽²⁾

(¹) أبو الفتح بن جني، الخصائص، تح، الشيخ محمد علي النجار، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت، دط ص33.

(²) منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م، ص78.

ومثال ذلك في رسالة لأفلح بن عبد الوهاب إلى "ميال" في شأن "نفاث" يستعمل فيها كلمات تشتمل على حرف "الخاء" توزعت على الرسالة، وهذه الكلمات هي: مخذول، خائب، متخبط، خبط، نفخاته، خَطَر، مخطئاً، خطأ، مخطيء، أخطأ، يخبط... و"الخاء" كما تشير إحدى الدراسات «أوحى الحروف بالمشاعر الإنسانية السلبية والمعاني الرديئة»⁽¹⁾.

ولعل هذه الكلمات المتضمنة حرف "الخاء" وأغلبها مقصود بها "نفاث" (فرج النفوسي) توحى بهذه المشاعر السلبية و المعاني الرديئة التي أصبح يوسم بها هذا الرجل بما أحدثه بخروجه عن الجماعة والبلبله التي رافقت ذلك.

وبعد الحديث عن الحروف ننقل إلى الكلمات ؛ولنبداً بالطباق وتوظيفه في الرسائل الرستمية، والطباق هو: «الجمع بين الشيء وضده في الكلام»⁽²⁾ وقد استخدمه كتاب الرسائل في كثير منها، ولا يُلاحظ في توظيفه تكلف أو صنعة وإنما جاء عرضاً أو لحاجة السياق إلى استعماله، ومن أمثلة الطباق التي استخدمت في تلك الرسائل قول "أفلح بن عبد الوهاب" في رسالة إلى "البشير بن محمد" (أذكرك عظمة الله لاتنساها) و(فكر في صغير خلقتك وفي عظيم ما خلقه الله) و(من عظيم خلقه من السماوات والأرض) و(ليس لنا فيها قضاء ولا زيادة و لا نقصان ولا أمر ولا نهى) وفي هذا التوظيف للطباق لم يتكلف الإمام "أفلح" الاستعمال بل جاء عرضاً ليقرب المعنى

(1) حسن عباس، حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، منشورات اتحاد الكتب العرب، دمشق، 2000م، ص18.
(2) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، 1424هـ، 2003م، ص303.

إلى ذهن المتلقي باستخدام هذه الثنائيات الضدية، لأنه كما يقال بضدها تتميز الأشياء، وفي رسالة أخرى دائماً لـ "أفلح" لا يستعمله . أي الطباق . إلا مرة واحدة في قوله (نظروا إلى الآخرة بقلوبهم فهان عليهم فراق الدنيا)، وفي رسالة ثالثة لا يلجأ إليه كذلك إلا مرة واحدة أيضاً في (أن ذلك ضلال ، لأن الهدى في أيديكم) وفي أطول رسائله من الرسائل الرستمية بشكل عام نراه يوظف الطباق في ثلاثة مواضع نذكرها تباعاً هي: (فيما وافق هواكم أو خالفه) و (ولم يلقوا أهل العلم فيقتبسوا منهم الدين عاشوا مع أهل الجهل فخلا بهم الشيطان) و (والرشد خير من الغي والهدى خير من الضلالة، والجنة خير من النار).

ومما سبق يمكننا أن نستنتج أن أسلوب الإمام "أفلح" يكاد يخلو من توظيف الطباق إلا ما جاء عفويا، ذلك أن تلك الفترة لم تشهد اهتماما كبيرا بهذا الجانب الذي شاع استعماله في الأدب العباسي حيث كان الاهتمام بالغاً بالمحسنات اللفظية والمعنوية، ونفس الشيء ينطبق على الرسائل المغربية التي كتبت في عصور متأخرة عن العهد الرستمي وعرفت توظيف المحسنات إلى درجة أن بعض كتاب ذلك العهد* التزموا حرفاً واحداً و بنوا عليه رسائلهم. ومثلما وظف كتاب الرسائل في العهد الرستمي الطباق استخدموا كذلك المقابلة وهي: «أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب. » (1)

* من أمثال ابن عميرة في رسالته النونية ، وأبو بكر بن خطاب في رسالته النونية.

(1) (المرجع السابق، ص304.

ومن الأمثلة التي وردت في تلك الرسائل قول عبد الوهاب بن عبد الرحمن في رسالته إلى أهل أطرابلس: (والشهادة لأهل الهدى بهداهم و ولايتهم عليه، والشهادة لأهل الضلالة بضلالتهم والبراءة منهم) فيقابل أهل الهدى وولايتهم مع أهل الضلالة والبراءة منهم وفي رسالة ثانية لـ"عبد الوهاب" إلى جبل نفوسة في مسألة "خلف" نجد قوله (واتباع ما أمركم به واجتتاب ما نهاكم عنه...) وقوله في نفس الرسالة (فإن من ولي خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته فقد أصاب...)

أما الإمام "أفلح" فإن أمثلة استخدامه للمقابلة نجدها في رسالته الثالثة إلى "نفاث" حيث يقول: (الذين في اتباعهم نرجو الهدى و في خلافهم نخشى الهلكة...) وفي رسالته الموجهة إلى من تحت لوائه من المسلمين التي يقول فيها: (وجاهد عدوه، وغلظ على الكفار ولان للمؤمنين ...) و (وفرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر...) وللإشارة فإن هذه المقابلة تكررت في بعض رسائل بني رستم لطبيعة تلك الرسائل التي كانت تحمل توجيهات من الأئمة إلى العمال وإلى الرعية على حد سواء، ومقابلة ثالثة في نفس الرسالة (هل يخافون الهلكة في اتباع آثارهم، أو يرجون النجاة في خلاف سبيلهم؟) وأخيرة . مقابلة . في قوله: (ففي اتباعهم كل رشد وفي مخالفتهم كل غي).

وهذه المقابلات الموظفة في الرسائل تبرز لنا حرص أئمة بني رستم على دينهم والدعوة إلى طريق الحق والاستقامة، ونلاحظ من خلال ألفاظها . المقابلة . استعمال الألفاظ ذات البعد الديني لتكون أكثر تأثيراً في المتلقي وأبعد في الإقناع.

أما السجع فقد كان أقل المحسنات وروداً في الرسائل الرستمية رغم أهميته في إعطاء موسيقى خاصة، وإيقاع يشد انتباه المتلقي إلى تكرار فواصله مما يجعلها حسنة الموقع في الأسماع، والسجع هو «توافق الفاصلتين في الحرف الأخير»⁽¹⁾ ومن الأمثلة عن هذا اللون من المحسنات التي حفلت بها رسائل تلك الفترة نذكر من رسالة لـ"أفلح" قوله: (فألزم التقوى نفسك، وأشعرها قلبك، واصبر على ما أصابك إن ذلك لمن عزم الأمور) وفي موضع آخر يقول: (والمتقون هم الفائزون خلصوا من هموم الدنيا وأشغالها ونجوا من عذاب الآخرة و نكالها، فمهدوا لأنفسكم، وقدموا لمعادكم، واعملوا عملاً يسركم) فنلاحظ أنه زواج بين فاصلتين . حرفين . هما الهاء والميم والهاء صوت رخو مهموس يحمل دلالات كثيرة فالهمس أبلغ في التأثير من التصريح واللين أشد وقعاً في النفس من الشدة. ودائماً من رسائل الإمام "أفلح" وهذه المرة في شأن "تفات" يقول: (فالحمد لله المحسن إلى أوليائه المنعم عليهم بحسن بلائه، معز أهل طاعته، وناصر القائمين بحقه) وفي رسالة أخرى يقول: (فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأكرمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام) ومن نفس الرسالة قوله: (لتنالوا بذلك ما وعد به من جزيل الثواب وكرم المآب).

أما "أبو اليقظان محمد بن أفلح" فنجد أنه قد استخدم السجع مرة واحدة في رسالته الوحيدة المذكورة في الأزهار الرياضية نجده في قوله: (فاقتفوا آثارهم واهتدوا بهداهم، واحذروا الزيغ عن طريقهم، والميل عن مناهجهم)

(¹) المرجع السابق، ص 330.

وجدير بالذكر هنا أن نعرف أن استعمال الطباق والمقابلة في النصوص؛ شعرها ونثرها إنما يقصد به زيادة توضيح المعاني ودلالاتها، حتى تصير أقرب إلى ذهن المتلقي باستخدام تلك الثنائيات الضدية، أما السجع فإن القصد من توظيفه هو تلك الفواصل الموسيقية؛ فالوقوف على الأحرف وتكرار العملية في الجمل يعطيها إيقاعاً خاصاً يستميل أذن السامع ويؤثر فيه، والإيقاع كما هو معلوم شيء من طبيعة اللغة عامة، فهو خاصية شعرية ونثرية.

ولعل استخدامه بشكل قليل في الرسائل الرسمية يعود إلى سبب شرعي؛ ومعلوم أن النبي ﷺ قد نهى عن سجع الكهان، وقصة ذلك الرجل الذي أتى إليه ﷺ يريد التتصل من مسؤولية قتل الجنين قائلاً: «يا رسول الله، رأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح و استهل، أليس ذلك يُطلّ؟ فقال الرسول: أسجعاً كسجع الكهان»⁽¹⁾، لعل هذا ما جعل الرستميين يرغبون عن استخدام السجع في مراسلاتهم.

ثالثاً: المقاربة التركيبية:

تعتمد الأسلوبية هذا الجانب في تحليل النصوص الإبداعية، وترى فيه « وسيلة ضرورية لبحث الخصائص المميزة لمؤلف معين؛ بل تعدّه أحد مستويات التحليل اللغوي للنص الأدبي. ويتخذ الدارس الأسلوبي في تحليله التركيبي جملة من المسائل تتطرق من النص نفسه، فالمدخل الأسلوبي لفهم أي قصيدة / نص هو لغتها.

(¹) نقلاً عن السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 8.

ومن هذه المسائل:دراسة أطوال الجمل و قصرها،ودراسة أركان التركيب من مبتدأ وخبر،وفعل وفاعل،وإضافة،وصفة وموصوف وغيرها،ودراسة ترتيب التركيب من تقديم و تأخير،إضافة إلى استعمال الكاتب للروابط المختلفة والضمائر وأنماط التوكيد،فضلاً عن دراسة الصيغ الفعلية وأزمانها،والمبني للمجهول والمبني للمعلوم،ودراسة حالات النفي والإثبات وتتابع عناصر الجمل و مبادئ الاختيار ودلالة كل ذلك على خصائص الأسلوب ⁽¹⁾ وهذا ما سنسعى إلى بيانه في الرسائل الرستمية التي تمكّننا من الحصول عليها.

سمات أسلوبية في الرسائل الرستمية:

لعل السّمة الأسلوبية التي تظهر بشكلٍ لافتٍ للمُتَمَعِّن في هذه الرسائل الرستمية هو أن أغلبها لا تخلو من آيات القرآن الكريم،أما الرسائل التي لم تذكر الآيات صراحة فإنها تتضمن معاني الآيات الكريمة،و ليس ذلك مما يُسْتَعْرَبُ عند أئمة الدولة الرستمية التي قامت على أساس ديني،وكان رائدها القرآن و السنة النبوية الشريفة،ومما يلفت النظر أيضاً أن بعضاً من تلك الرسائل اشتملت على مضمون بعض أحاديث الرسول .

صَلَّى الله عليه و سلم . و إن لم تذكرها بلفظها صراحة.

أ . تركيب الجمل :

1. الجمل الاسمية :

(¹) أمانى سليمان داود،الأسلوبية و الصوفية،دار مجدلاوي،عمان،الأردن،ط1، 1423هـ، 2002م،ص97.

تميزت بعض الرسائل الرستمية باستعمال مكثف للجمل الاسمية، خاصة تلك الرسائل التي كتبها عبد الوهاب بن عبد الرحمن، وبوجه أخص رسالته إلى أهل أطرابلس التي جاءت أغلب جملها اسمية من مثل: «الإقرار بما أنزل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ... والحكم بين الناس بالعدل والتعاون على البر والتقوى والنهي عن الفحشاء والمنكر والإثم والعدوان ...» والشهادة لأهل الهدى بهداهم وولايتهم عليه، والشهادة على أهل الضلالة بضلالهم والبراءة منهم»⁽¹⁾ ويمكن الرجوع إلى الرسالة في الملحق لمعرفة بقية الجمل الاسمية.

و استعمال الجمل الاسمية فيه دلالة على الثبات والاستمرارية، ومعروف تاريخياً أن فترة الإمام عبد الوهاب كانت فترة استقرار وازدهار للدولة الرستمية وامتدت إمامته من (171-208هـ)، وعن ذلك يحدثنا مؤرخهم - ابن الصغير - فيقول: «وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله، ودان له ما لم يدن لغيره، واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله»⁽²⁾

وما يميز هذه الجمل الاسمية أن المبتدأ . وهو هنا اسم "إنَّ" كان لفظة واحدة هي: الإسلام وتعدد الخبر و كان في كل مرة يرتبط بما بعده بحرف العطف "الواو" الذي تكرر إحدى وأربعين (41) مرة، وهو في عرف البلاغيين يفيد التشريك، واستعمل المبتدأ مؤكداً بـ"أنَّ" و هي حرف مشبه بالفعل يفيد التوكيد، كما أن الجمل المتعددة التي

(1) ينظر نص الرسالة في ص 123 وما بعدها من هذا البحث.

(2) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، مرجع سابق، ص 39.

تلت الاسم أسهمت في بيان ماهية الإسلام فهو: شهادة وإقرار وأمر ونهي وصيام وحج وإحسان ...

ويُلاحظ كذلك على هذه الجمل أنها بسيطة ومركزة لا يحتاج المتلقي جهداً في فهمها خاصة وأن المقصود بها هم عامة الرعية لذلك اختار لها كاتبها ما يتلاءم وحال المتلقين، أما في آخر الرسالة فيورد جملة فعلية واحدة هي (فمن أقر للمسلمين بهذا وجبت ولايته ومودته و الاستغفار له و وجب حقه ما لم يحدث حدثاً يخرج به من ولاية المسلمين) مما يدل على استمرار وتجدد هذا الفعل من المسلمين في حق كل من يثبت على ما ذكره آنفاً.

2. تركيب الجملة الفعلية:

الجملة الفعلية هي « كل جملة صدرها فعل، وتوضع لإفادة الحدث في زمن مخصوص كالماضي والمضارع مع الاختصار؛ أو تفيد الاستمرار والتجدي إذا دلت عليه القرائن»⁽¹⁾

(¹) حسين جمعة، في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية) منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م، ص 60.

وقد استخدم كتاب الرسائل في العهد الرستمي أنواعًا من الجمل الفعلية تراوحت بين الماضي، والمضارع، والأمر؛ ولا يخفى على أحد أن الفعل دعامة من دعامات الجملة، وغيابه كما يرى "جان كوهن" يجرد الصرح اللغوي من الأساس الذي يدعمه.

و بما أن استعمال الأفعال فيه دلالة على الحركة والتجدد والاستمرارية، فإننا نجد جل الرسائل الرستمية نوعت الاستخدام بين هذه الأنواع من الأزمنة، لكن اللافت للنظر في استخدام الماضي و المضارع نراه في رسالة الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى المسلمين في شأن "نفاث" حيث يستعمل الفعل ثلاثًا وخمسين (53) مرة، منها أربعًا و ثلاثين (34) مضارعًا، و البقية ماضية، و كأن في هذه الرسالة تعبير عن الأحداث المتلاحقة والحركة والاضطراب الذي شهدته دولة بني رستم أثناء خروج "فرج النفوسي" المعروف بـ"نفاث" الذي ابتدع بدعًا، وادّعى ادعاءات كثيرة؛ منها ادعاؤه أن خطبة الجمعة بدعة و غيرها من الأباطيل التي أحدثها.

ونلاحظ أيضًا غلبة المضارع على الماضي في الاستعمال الذي يضيف حركة وفاعلية واستمرارية على النص، وقد يكون في ذلك إشارة إلى أن ما كان من هذا الرجل ينبغي أن يبقى من الماضي، وألا يمتد تأثيره إلى المستقبل، وقد يعني ذلك أيضًا . أي غلبة المضارع . الاستمرارية والتجدد الذي ينشده أفلح بن عبد الوهاب لدولته. ذلك أن «الفعل الماضي المستعمل في الأنساق البلاغية والنحوية إنما يوحي بدلالة التمسك

بالموروث،بينما يرمز الفعل المضارع إلى زمنية واقع الإنسان في اللحظة الراهنة،في الوقت الذي تشتمل بعض صيغه على التطلع على المستقبل»⁽¹⁾

ب . التوكيد :

استخدم كتاب الرسائل الرستمية التوكيد،إلا أنهم اقتصروا في استخدامه على صيغتين أو ثلاث؛نجدها تكررت في بعض الرسائل،وقد استخدموا التوكيد بالحرف"أن"والتوكيد باللام . لام التوكيد . و بالقسم باستعمال لفظة "لعمري" التي أكد بها الإمام أفلح بن عبد الوهاب في رسالته الموجهة إلى العامة على أن الفرقة والتشتت لا تكون إلا بفعل البدع التي يبتدعها بعض الخارجين عن ما جاء به الإسلام،فراه يقسم على ذلك في قوله:« لعمري ما تفرقوا إلا ببدعة ابتدعوها،وضلالة أحدثوها،و فتنة رماهم الشيطان بها،فنفخ في قلوبهم الكبر،وأورثهم العُجب،فحملهم على ترك المنهاج الذي مضى عليه صالح سلفهم،وزين لهم بدعتهم وصيرهم بعد الهدى ضلالا،وبعد الإيمان كفارًا... »⁽²⁾

واستخدمه أيضًا في رسالته التي بعث بها إلى البشير بن محمد حيث يقول: «فلعمري إنه لكذلك و لكن ليست في هذا إنما هي أسهم جعلها الله وأوقفها ...» ومعلوم أن التوكيد يستعمل عندما يكون المخاطب مترددًا في الخبر طالبًا الوصول لمعرفة فيستحسن تأكيد الكلام الملقى إليه تقويةً للحكم ..(أو) أن يكون المخاطب منكراً للخبر

⁽¹⁾المرجع السابق،ص176.

(2) ينظر نص الرسالة في صفحة138.

الذي يراد إلقاؤه إليه، معتقداً خلافه، فيجب تأكيد الكلام بمؤكدٍ أو أكثر، على حسب حالة الإنكار قوة و ضعفاً.⁽¹⁾

وقد استعمل لتأكيد ما يريد إلقاءه ثلاثة مؤكدات: القسم و اللام و "إنَّ" ليزيد من قوة التأثير في المتلقي. أما التوكيد اللفظي فلم يلجأ إليه المترسلون في العهد الرستمي إلا قليلاً كما فعل ذلك الإمام أفلح في إحدى رسائله حيث نراه يكرر اللفظة لكن باستخدام مرادفتها ،في قوله: "فلا تغرنكم فإنها فانية زائلة"

ج . تراكيب الإضافة:

اشتملت الرسائل الرستمية على تراكيب الإضافة في كثير منها، لكن إحدى تلك الرسائل ورد بها هذا التركيب بشكل لافت ،ذلك أن تركيب الإضافة « يتيح توليد معان جديدة من خلال الربط بين لفظين متجاورين، وكذلك ما تهيئه من نفاذٍ إلى الجزئيات والمعاني الخفية التي لا تؤديها اللفظة المفردة »⁽²⁾ و الرسالة المعنية هي جواب الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة خلف، وخلالها استخدم الكاتب تركيب الإضافة اثنين وعشرين (22) مرة في رسالة قصيرة نسبياً، ومن التراكيب المستعملة: أمير المؤمنين، جماعة المسلمين، تقوى الله، وفاة السمح، استخلاف بعض الناس كتابي هذا...

(¹)أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية، مرجع سابق، ص109.

(²) المرجع السابق، ص123.

ومما يلاحظ على الإضافة هنا أنه استخدمها بإضافة لفظة إلى لفظة أو بتتالي ثلاث كلمات ،مما يزيد من تعريف وتخصيص تلك الألفاظ.كما يقول ابن جني«الغرض في الإضافة إنما هو التعريف و التخصيص،والشيء إنما يعرفه غيره،لأنه لو كانت نفسه تعرفه لما احتاج أبداً أن يعرف بغيره،لأن نفسه في حالي تعريفه وتكثيره واحدة،وموجودة غير مفقودة.ولو كانت نفسه هي المعرفة له أيضاً لما احتاج إلى إضافة إليها،لأنه ليس فيها إلا ما فيه،فكان يلزم الاكتفاء به،عن إضافتها إليها»⁽¹⁾

د . التراكيب الإنشائية:

تعتبر التراكيب الإنشائية إحدى الاختيارات التي يلجأ إليها الكتاب في إبداعاتهم لما توفره من إمكانية تنويع التعبير،والخروج بها عن أغراضها الأولى،فلا يبقى الاستفهام يفيد السؤال فقط،ولا يكتفي الأمر بطلب تنفيذ المطلوب،وهكذا تكون بقية أساليب الإنشاء،وفيما يلي سنحاول أن نعطي أمثلة عن الأساليب الإنشائية التي حفلت بها بعض الرسائل الرستمية والأغراض التي أفادتها.

1. الاستفهام:

الاستفهام هو « طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبلُ وذلك بأداة من إحدى أدواته»⁽²⁾ وهو أيضاً طلب الجواب والفهم لسؤال يطرحه المتكلم و يريد أن يلقى له جواباً من المخاطب،وهو أحد أساليب الإنشاء الطلبي في الجملة العربية،إلا أن

(1) أبو الفتح بن جني،الخصائص،مرجع سابق،ص401.

(2) السيد أحمد الهاشمي،جواهرالبلاغة،مرجع سابق،ص78.

أغراضه لا تقف على هذا فقط بل تتعداه إلى مفاهيم أخرى تدرك من سياق الكلام، ومثالها في الرسائل الرستمية ما جاء على لسان "أفلح بن عبد الوهاب" موجهًا على ما يبدو إلى أحد عماله، فنراه يستخدم الاستفهام في غير معناه الحقيقي . طلب الفهم . حيث يقول: "فما وجه ما سألتكم من ذلك؟ و هل أنتم على شك من دينكم أو ريبة في أمركم؟ فالإمام عبد الوهاب لا ينتظر جوابًا من المخاطب على سؤاله، وإنما يضمنهما توبيخًا و تقريعًا و لومًا على التهاون الذي أبداه هذا العامل في حق "نفاث" الخارج عن سلطة الإمام، وفي رسالة أخرى له أيضًا موجهة إلى "نفاث" يقول فيها: فجعلت تكتب إلينا فيما ليس لك به كتاب، فعلام تتجاهل الأمور؟ وهنا لا ينتظر الإمام جوابا ولكن يستفاد منه الإنكار لعمل "نفاث" وهذه الاستعمالات وظفها "أفلح" رغم علمه بما يستفهم عنه، لأنه « قد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معناها الأصلي، فيستفهم بها عن الشيء مع العلم به، لأغراض أخرى تفهم من سياق الكلام ودلالته»⁽¹⁾

2 . الأمر :

الأمر كذلك من الأساليب الإنشائية الطلبية، وهو « طلب الفعل على وجه التكليف والإلزام بشيء لم يكن حاصلًا قبل الطلب و في وقته على جهة الحقيقة أو المجاز»⁽²⁾ و للأمر صيغ مختلفة؛ منها الأمر والفعل المضارع المقترن بلام الأمر، واسم الفعل.

(1) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، مرجع سابق، ص83.

(2) حسين جمعة، جمالية الخبر و الإنشاء، مرجع سابق، ص105.

ويأتي الأمر- عادة . إما بمعناه الأصلي، الذي يعني طلباً محدداً يوجه إلى المخاطب، ويراد منه أن يقوم بأمر ما، أو يؤدي مهمة معينة، وإما أن يتحول من أصل وظيفته هذه إلى معنى تعبيرى بلاغى يخرج فيه الأمر إلى دلالات شتى يمكن التماسها في السياق الذي يرد فيه (1)

وقد استعمل الرستميون في رسائلهم صيغ الأمر الثلاثة، فأفلح في رسالته إلى "البشير بن محمد" وزع صيغة الأمر على أجزاء الرسالة فنراه في بدايتها يقول له (وفكر في صغير خلقتك و في عظيم ما خلقه الله)، وفي وسطها يواصل استخدامه قائلاً (فاطلب الله وارغب إليه... واعلم أنه لا شيء لمن عقل خير ممن وعظه موعظة يأخذها، فاقبل واجتهد في القبول) وفي آخر الكتاب يقول (فاتق الله واجتهد جهدك في توفير الحقوق...)

فالصيغ المستعملة مصرفة مع ضمير الخطاب "أنت" وكلها تخرج عن المعنى الأصلي للأمر، ويُستفاد منها النصح والتوجيه والإرشاد رغم أنها موجهة من الحاكم إلى المحكوم ومع ذلك لا تأخذ صفة الاستعلاء الحقيقي.

وفي رسالة أخرى لأفلح يستعمل الأمر واسم الفعل مع "أنت" و "أنتم" فيتوجه إلى المرسل إليه، ثم إلى الجماعة، فلخطاب المرسل إليه يقول (فألزم التقوى نفسك وأشعرها قلبك واصبر على ما أصابك) أما الجماعة فيخاطبها قائلاً (فمهدوا لأنفسكم، وقدموا لمعادكم، واعملوا عملاً يسركم غداً... وعليكم التمسك بما مضى عليه سلفكم الصالح)

(1) أماني سليمان داود، الأسلوبية و الصوفية، مرجع سابق، ص135.

وهنا كذلك نلاحظ أن الأمر ليس حقيقياً، والغرض منه هو النصح و الإرشاد و توجيه الرعية إلى ما فيه خيرها.

وفي رسالته الثانية في حق "نفاث" يستعمل المضارع المقترن بلام الأمر فقط، يقول: "فمن قرئ عليه كتابي هذا، فليسمع وليطع، ولينتبه إلى ما أمرت به...". وبعدها يقول: "ومن عاب أحداً من عمالنا بخصلة من الخصال أو أنكر عليه شيئاً فليرفع ذلك إلينا"

والطلب في الجمل السابقة على وجه التكليف والإلزام، بيدي من خلالها المرسل قوة وحزماً، وبذلك فإنه «على الرغم من أن صورة المضارع تثير حركة مع اقترانها بلام الأمر إلا أنها ذات اتجاه ثابت في الخطاب و التأثير... وهي موجهة على سبيل الاستعلاء الحقيقي» (1)

أما الرسالة الثالثة فهي مرسلة من الإمام أفلح إلى "نفاث" شخصياً فإن صيغة الأمر المستعملة فيها يغلب عليها ضمير الخطاب "أنت" حيث يقول: «...فاظهر الانتقاء من ذلك، وكذب عن نفسك ما قيل عنك... فانف عن نفسك ما رقي عليك، و كن من جماعتنا وموافقي أسلافنا...» (2)

ورغم ما يظهر على الخطاب من شدة و حزم فهي مُبَطَّنة بنوع من التسامح من الإمام "أفلح" فهو يريد أن يظهر الانتقاء ويكذب عن نفسه ما قيل عنه، كما يريد أن ينفي عن نفسه ما رقي عنه، ويكون من جماعته مستعملاً "نا" في "جماعتنا" و "أسلافنا" لتدل على ذلك

(1) حسين جمعة، جمالية الخبر و الإنشاء، مرجع سابق، ص 106.

(2) ينظر نص الرسالة في صفحة 133.

الارتباط الروحي الموجود بين المسلمين فالمسامح كريم، لكن "نفاث" يبقى على عناده وإصراره، وتكون بذلك آخر رسالة موجهة إليه، يفر بعدها إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

أما الرسالة التي سماها الباروني "النصيحة العامة من الإمام أفلح إلى كل من كان تحت لوائه من المسلمين" فصيغة الأمر واسم الفعل فيها اختار لهما ضمير الخطاب "أنتم" ذلك أنها موجهة لرعيته، واستعمله مع الأمر واسم فعل الأمر "عليكم" الذي كررها ثلاث مرات، أما الأمر فاستخدمه مع أفعال متعددة "تقربوا، اتبعوا، اجتهدوا، اعلموا، أعرضوا أعمالكم، أحسنوا محاسبة، انتبهوا، خذوا، اتقوا الله، تواصلوا، مروا بالمعروف، انهوا عن المنكر..." وكل هذه الصيغ يبدو أن غرضها هو نصح الرعية وتوجيهها إلى الطريق الصحيح، وترغيبها فيما يكون فيه صلاح العباد والبلاد. ولا شك أن هذه النصائح والتوجيهات لها تأثير على المتلقي، خاصة وهي عبارات تذكر الناس بالواجب وتنبههم إلى ما ينتظرهم من جزاء من الله تعالى وتخاطب فيهم القلب والعقل معًا.

3 . النهي :

النهي واحد من الأساليب الإنشائية التي عني باستخدامها في إبداعاتهم الكتاب والشعراء، وهو «طلب الكف عن فعل شيء ما من المخاطب على جهة الحقيقة والمجاز، ويقع بعد الأمر في الطلب» ⁽¹⁾ ولم يستعمله كتاب الرسائل في العهد الرستمي

(1) حسين جمعة، جمالية الخبر و الإنشاء، مرجع سابق، ص124.

إلا نادراً، نجده في رسالة لأفلح يقول فيها: "فلا تغرنكم فإنها فانية زائلة " محذراً مخاطبيه من عاقبة التمسك بالدنيا ونسيان أمر الآخرة.

ولعل ما يبرر عدم اكتراث كتاب الرسائل الرستميين بتوظيف "النهى" في رسائلهم أن كثيراً من صيغ الأمر تشتمل ضمناً على النهي.

وقد خلت الرسائل الرستمية من بعض الأساليب الإنشائية؛ مثل النداء الذي لم ترد ولو جملة واحدة من مجموع الرسائل بأسلوب النداء ولعل مرد ذلك - أي خلو الرسائل من النداء - أن كتاب الرسائل ليسوا في حاجة إلى استعمال هذا الأسلوب، طالما أن الرسالة يُبعثُ بها إلى المخاطب (المرسل إليه)، فلا تكون خطاباً مباشراً مثل الخطبة، وبالتالي لا تحتاج إلى استخدام النداء الذي يكون الغرض منه طلب الإقبال من السامع و الانتباه إلى ما سيُلقى عليه.

هـ . اسم الفاعل واسم المفعول:

اسم الفاعل صيغة صرفية مشتقة من الفعل كما يراها الكوفيون و من الاسم كما يقول البصريون، وهذا الاختلاف بين المدرستين جعلها تأخذ من ذا و ذاك دلالتها وهذا ما حدا بأحدهم إلى القول: « وقد ترتب على تلك الطبيعة المزدوجة لاسم الفاعل أن صار مشتركاً بين الدلالة على الثبوت من جهة النظر إليه كاسم في مقابل الفعل الدال على التجدد. »⁽¹⁾

(1) (عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن دراسة نظرية تطبيقية، المكتبة العصرية، بيروت، 1423هـ. 2002م، ص221.

وقد وردت هذه الصيغة بصفة لافتة في جواب الإمام "أفلح" إلى المسلمين في شأن "نفاث" استعملها من الفعل الثلاثي وغير الثلاثي؛ ومن أمثلة الأول: ناصر، قائم، خائب، جاهل، راكب، حاطب، تائه، رادُّ، وأما أمثلة الثاني: محسن، منعم، معز، متوحش، مصيب، مخطئ، مبتدئ.

فاستعمال صيغة اسم الفاعل إذا تدل على ثبوت الوصف في الماضي و دوامه وتجده واستمراره.

فهو عندما يقول: "فالحمد لله المحسن إلى أوليائه المنعم عليهم بحسن بلائه، معز أهل طاعته، وناصر القائمين بحقه" يثبت الإحسان و الإنعام الإعزاز و النصره من الله - عز وجل - لأوليائه في الماضي و استمرارها في الحاضر و المستقبل، وكذلك الأمر عندما يقول في حق "نفاث": "وفهمت كل ما ذكره لك فيه عن كل خائب جاهل، بما هو عليه متحامل على ما لا علم له به متخبطٌ في أموره خبط عشواء ... أقام متوحشاً من العلماء فتقلب في جوانبه الشيطان بنفخاته... فهو راكب مشكلات يخطب خطب عشواء، كحاطب ليل لا يدري ما يحطب... وأن تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما كان يفعله سلفكم بمن كان قبله لكي ينزجر... فهو يثبت الخيبة والجهل والتحامل و التخبط وغيرها من الأوصاف في حق "نفاث" في الماضي والحاضر واستمرار ذلك في المستقبل ما لم يرتدع عن ذلك ويعود إلى الجماعة.

وشبيهه باسم الفاعل اسم المفعول فهو أيضاً يدل على ثبوت الوصف في الماضي واستمراره في الحاضر و المستقبل،وقد جاء في نفس الرسالة استعمال اسم المفعول من الثلاثي ومن غير الثلاثي؛فاستخدام لفظة "مخدول"في قوله «فليس من اتبع أمره بمخدول» تدل على ثبات عدم الخذلان لمن اتبع أمر الله تعالى.ونفس الكلام يقال عن لفظتي " مقصى ومبعد"في قوله:«و كان عندهم مقصى ومبعداً» فهما كما نلاحظ تدلان على ثبات الإقصاء والإبعاد في حق "نفاث".

رابعا:ظاهرة التناص في الرسائل الرستمية:

يعرف التناص بأنه حضور نصوص سابقة أو متزامنة في نصوص لاحقة،وتوجد له تعريفات كثيرة ومتنوعة ،فقد كان النقاد العرب القدامى يسمونه السرقة الأدبية،وأطلقوا عليه تسميات كثيرة منها:توارد الخواطر،التوليد،الإبداع،التضمين والاقتباس... أما ظهوره عند النقاد الغربيين فقد كان في القرن العشرين و بالضبط في منتصف ستينياته،على يد جوليا كريستيفا JULIA KRISTIVA في أبحاثها التي نشرتها في مجلتي (تيل كيل TEL QUEL) و (كريتيك CRITIQUE) وغيرها من النقاد الغربيين.

و ما يهمنا هنا هو ظاهرة تناص عدد من رسائل بني رستم مع القرآن الكريم،وتضمين بعضها أحاديث الرسول ﷺ بمعانيها لا بنصوصها،ومن أمثلة ذلك ما نلاحظه في رسالة عبد الوهاب بن عبد الرحمن إلى أهل طرابلس،حيث نجد أغلب ما جاء فيها يتناص مع

آيات القرآن الكريم، خاصة مع هذه الآيات: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً و
بالوالدين إحساناً و بذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى و الجار الجُنُب و
الصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم﴾ من الآية 36 من سورة النساء. وقوله
تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ سورة المائدة
من الآية 03 وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون
بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله﴾

سورة التوبة من الآية 72

وغيرها من الآيات الكريمة، ونفس تلك الرسالة تناصت مع حديث الرسول ﷺ الذي رواه
عمر بن الخطاب ؓ، «...قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: الإسلام
أن تشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله. وتقيم الصلاة. وتؤتي الزكاة. وتصوم
رمضان. وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً...» رواه مسلم.

كما تناصت بعض الرسائل الرستمية الأخرى مع أحاديث للرسول الكريم ﷺ، وإن لم تذكر
الحديث بنصه الكامل، ومن هذه الرسائل رسالة الإمام أفلح بن عبد الوهاب في حق "نفاث"
التي يقول فيها: "فهو ذو بدعة وكل بدعة ضلال، وكل ضلال كفر، وكل كفر في النار..."
و كذلك رسالته الموجهة إلى كل من كان تحت لوائه من المسلمين، والتي يقول فيها: "
وإياكم والبدع فإن البدع هلكة، وسوء طريقة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة كفر، وكل كفر

في النار... "هاتان الرسالتان تتناصان مع حديث الرسول ﷺ، الذي يقول فيه: «... فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ...» (1)

كما أن بعضاً من الرسائل الأخرى، اشتملت ألفاظها على العديد من المفردات المأخوذة من القرآن والسنة النبوية الشريفة.

رابعاً: المقاربة الدلالية:

تعنى الأسلوبية بالجانب الدلالي للنصوص الإبداعية، باعتباره أحد مرتكزات التحليل وباعتباره يعطي فكرة عن القاموس الذي استعمله المبدع في نصه، وقد تنوعت الحقول الدلالية في الرسائل الرستمية وإن كان يغلب عليها الجانب الديني .

أ . الحقول الدلالية:

يعرف الحقل الدلالي بأنه «مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع تحت لفظ عام يجمعها» (2) وهذا يعني أن الحقل الدلالي يتكون من مجموعة من المعاني التي ترتبط فيما بينها، تتميز بوجود عناصر أو ملامح دلالية مشتركة تكشف الصلات الموجودة بين

(1) الحديث بنصه الكامل موجود في صحيح مسلم وسنن أحمد، وابن ماجه والدارمي وغيرها من كتب الحديث.

(2) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العرب للنشر و التوزيع، الكويت، ط1، 1402هـ، 1982م، ص79. وينظر أيضا عبد الجليل منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م، ص194.

تلك الألفاظ فالهدف العام من تحليل الحقل الدلالي هو «جمع كل الكلمات التي تخص حقلاً معيناً، والكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام»⁽¹⁾

و الحقول الدلالية في الرسائل الرستمية متنوعة؛ شملت جوانب متعددة من الحياة السياسية والدينية، مست الحياة الدنيا، والآخرة، والنصح والتوجيه، والولاية والبراءة، وسنحاول فيما يلي أن نصنف هذه الحقول وبيان ألفاظ كل حقل .

1. حقل الألفاظ الدينية:

كثرت الألفاظ التي تشير إلى الجانب الديني في الرسائل الرستمية، إلى درجة أن بعض تلك الرسائل نجد أغلب كلماتها تنتمي إلى الحقل الديني، ومن ألفاظ هذا الحقل: الإسلام، شريعة، شهادة، الصلاة، الزكاة، صيام رمضان، حج البيت، إحسان، غض البصر، الفريضة، الولي، الاســـــــــتغفار، الأمانة، العدل، التعاون، البر، التقوى، التوبة، الهدى، المسلمين، الاستعانة، العصمة، طاعة، التوكل، الفقه، اليقين، حول، العلي، العظيم، الســـــــــنة، فرض، مُحَرَّم، المستعان، دينه، الســـــــــلام، التبليغ، الأنبياء، رحمة، الإبلاغ، المؤمنين، رؤوف، رحيم، سَنَّاها، فرضـــــــــها، أوجبها، زجر، أمر، الحمد، الجهاد، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الدين، الثواب، المآب، الحق، الدين وغيرها من الألفاظ التي تنضوي تحت الحقل الديني .

(¹) نفسه، ص80.

وشيوع هذه الألفاظ وسيطرتها عند كتاب الرسائل الرستميين فيه دلالة على تمسكهم بالدين الإسلامي وحرصهم على تطبيقه و تنفيذ ما جاء فيه من أوامر ونواه،وتبليغ ذلك إلى الرعية و التذكير بسير الأولين و الدعوة إلى إتباع الأسلاف الماضين،والاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - في كل ما يتعلق بشؤون حياتهم الدينية والدنيوية.

2 . حقل الألفاظ الخاصة بالحكم و الولاية والبراءة:

وردت ألفاظ عديدة في الرسائل الرستمية تخص هذا الحقل نذكر منها: استخلاف، وَلِيّ، رضا، تولية، عامل، استعمله، عمالته، ينصفوا، أوليائه، قضاء، الاجتهاد، الحقوق، الحق، شرعه، شق عصا الإسلام، يُهَجَّر، يُقْصَى، يُبْعَد، حكم الله، أمر لازم، فرض محرم أن يتعدى، السلطان، عدل، أئمتنا، أمرتهم، خلع، خالف، نفيه، هَجْرُهُ، [إقصائه]، خلافتنا، البراءة، الولاية، مُقْصَى، ولاية، الموافقة، سنّها، فرضها، أوجبها، زجر عنها، الكبراء، خالفوا أهل البدع، شرط حدّ، الحدود، الأحكام، الإمامة، جائز، الحلال، الحرام. وألفاظ هذا الحقل تؤدي المعاني التي وضعت لها، وكلها تدل على حرص أئمة بني رستم على الحكم بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وولاية أهل الهدى والقائمين بما أمر الله،والبراءة و الابتعاد عن أهل الضلالة والزيغ

والمارقين عن سلطان الدين، وفي هذا دلالة على التمسك الشديد لأئمة الرستميين بالدين الإسلامي وأحكامه في كل ما يتعلق بشؤونهم الخاصة والعامة، ولا غرابة في ذلك فقد قامت دولتهم على مبدأ الديمقراطية والشورى وانتخاب الإمام.

3. حقل الألفاظ الدالة على النصح والتوجيه:

احتل هذا الحقل حيزاً لا بأس به من الرسائل الرستمية، ومن الألفاظ التي دلت على النصح والتوجيه: أمركم بتقوى الله، اتباع ما أمركم به، اجتناب ما نهاكم عنه، فليرجع كل عامل، توبوا إلى ربكم، فاطلب الله وارغب إليه، وعَظْهُ مَوْعِظَةً، فاقبل واجتهد في القبول، فائق الله واجتهد جهدي في توفير الحقوق، أوصي نفسي وإياك بتقوى الله ولزوم طاعته والتوقي على دينه، ألزم التقوى نفسك وأشعرها قلبك واصبر على ما أصابك، مهدوا لأنفسكم، قدموا لمعادكم، اعملوا عملاً يسركم غداً مكانه، عليكم التمسك بما مضى عليه سلفكم، فلا تغرّنكم فإنها فانية، فليسمع وليطع ولينتبه، وفي ذلك شفقة منا عليكم أن تهلكوا، أنصح لك فيه وأدعوك إلى رشدك، أظهر الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ما رقي عليك، كن من جماعتنا، نصح لأمته، عليكم معشر المسلمين بتقوى الله، تقربوا إلى الله، فاتبعوا ولا تبتدعوا واجتهدوا في إدراك ما أدركوه، فاتقوا الله حق تقاته وتواصوا بالبر والتقوى، مروا بالمعروف وانها عن المنكر، فاحذروا معاشر المسلمين من كانت هذه صفته، احذروا ما حذركم منه من أليم عقابه، ارغبوا فيما رغبوا من جزيل ثوابه، واذكروا ما نهاكم عنه، فعليكم معشر المسلمين باتباع الآثار، قد بالغت إليكم في النصيحة، يتواصى به العباد ويتحاضوا

عليه، تقوى الله ولزوم طاعته، وعليكم معاشر المسلمين بالتهيؤ للقُدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار، عليكم باتِّباع الماضي من أسلافكم، اقتفوا آثارهم، اهتدوا بهداهم، احذروا الزيغ عن طريقهم، خالفوا أهل البدع، أدخل في أمور المسلمين يقوي الله بدنك...

وكل هذه الجمل والمفردات تدخل في حقل النصح والتوجيه؛ الذي كان سبيل أئمة بني رستم في سلوكهم مع الرعية، وحتى مع مخالفيهم فقد كانوا يبذلون لهم النصح ويريدون منهم أن يعودوا إلى سبيل الحق ويتخذوه سبيلاً.

وقد اكتفيت بذكر هذه الحقول الدلالية، لأنه بدا لي أنها هي التي تسيطر على أغلب الرسائل التي كتبت في العهد الرستمي، ولعل السياق التاريخي الذي عاشته الدولة الرستمية في مسيرتها من التأسيس إلى السقوط هي التي فرضت استعمال ألفاظ وجمل تلك الحقول، على أنني لم أقم بإدخال مفردات الآيات القرآنية التي استشهد بها كتاب الرسائل في خطاباتهم ضمن الحقول الدلالية.

خاتمة

بما أنّ لكل بداية نهاية، فإنه لا بد أن نضع نقطة الختام لهذا البحث الذي كان موضوعه فن الترسل في العهد الرستمي، وقد حاولت قدر المستطاع أن أخرج به في أحسن حال، متمنيا أن تكون هناك مواصلة في ميدان البحث في التراث الأدبي والفكري الذي تزخر به الجزائر، ويأتي من ينقب ويبحث ويجتهد حتى تصير كل الكنوز التي تمتلكها بلادنا في متناول أبنائها - وكم هي كثيرة - وحينها فقط يمكننا أن نعرف المخزون الفكري والأدبي الذي تمتلكه الجزائر.

في آخر هذا البحث سأبين ما توصلت إليه من نتائج؛ وهي ملاحظات عامة استخلصتها من خلال دراستي لمختلف النماذج التي وقعت تحت يدي من الرسائل التي كتبت في العهد الرستمي، ويمكن أن أوجزها فيما يلي:

- الأدب الجزائري له امتداد تاريخي إلا أنه لم يول العناية والاهتمام اللازمين من قبل الباحثين ومن قبل الدولة الجزائرية وخاصة الجامعات.

- يبدو أن الرسائل التي كُتِبَتْ في الفترة موضوع البحث لم تصلنا كلها لظروف عديدة.

- بعض ما وصلنا من رسائل لم يصل كاملاً (بعض الرسائل تشير إلى ذلك).

- ما وصلنا من الرسائل كان من نوع الرسائل الديوانية التي تختص بأمور السياسة والحكم والسلطان.

- يلاحظ أيضًا أن أغلب كُتَّاب الرسائل هم من البيت الرستمي الذي تولى الحكم وأدار سياسة البلاد.

- تظهر بعض رسائل تلك الفترة أن الكتابة الديوانية كانت منتشرة بكثرة وفي رسالة أفصح بن عبد الوهاب إشارة إلى ذلك (...وقد أكثرتم فيه من الكتب...)

- بعض من تلك الرسائل موجهة إلى ولاية الأقاليم في الدولة الرستمية.

- كثير من الرسائل ذات طابع وعظي وإرشادي .

- بعض الرسائل فيها إشارات إلى الوضع القائم آنذاك، والاختلافات التي حدثت في عهد الدولة الرستمية.

- اعتمدت الكثير من الرسائل أسلوب الاستشهاد بأي القرآن الكريم.

- نجد في بعض الرسائل الرستمية توظيفاً للأمثال (...كحاطب ليل)

- ألفاظ الرسائل الرستمية يغلب عليها الجانب الديني.

- تَصَمَّنَتْ بعض الرسائل جُملاً من الرسائل التي أرسلت وكانت هي الرد (وقد قلتم في

كتابكم "هو غلام حدث غر...").

- أسلوب الرسائل الرستمية بسيط لا تكلف فيه، فهي شبيهة بالرسائل التي كتبت في عهد

الخلافة الراشدة و العصر الأموي لقربها التاريخي من تلك الفترة.

المنهج الأسلوبي أكثر المناهج ملائمة لدراسة هذه الرسائل.

- دراسة هذه الرسائل وفق المنهج الأسلوبي تبرز جمالياتها ورونقها.

. الدراسة الأسلوبية تبرز ظاهرة التناسل اللافتة للنظر في كثير من الرسائل الرستمية.

وإذا كان هذا البحث قد عالج فترة من تاريخ الجزائر- فترة الدولة الرستمية - وهي فترة قصيرة نسبياً واهتم بشيء واحد منها وهو أدب الرسائل وهو أيضاً قليل ولم تبق منه إلا رسائل احتفظت به الكتب التي أرخت لتلك الفترة، فماذا سيكون الأمر لو أن مجموعة من الباحثين تخصصوا في الأدب الجزائري القديم وفي التراث بشكل عام، من الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر وإلى غاية انتهاء الحكم العثماني بها في سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (1830م) وأنشئ لذلك خلايا بحث على مستوى العديد من الجامعات الجزائرية خاصة القريبة منها من مصادر الإشعاع الفكري في الماضي؟ هل سيبقى من يقول لوجود لأدب جزائري قديم؟ وماذا لو أن كل عائلة جزائرية تملك مخطوطات وكتباً قديمة مكنت الباحثين الأكاديميين الجزائريين من الاطلاع عليها وتحقيقها وإخراجها إلى الوجود؟ وماذا لو استردت الجزائر من اسطنبول وباريس ومدرّيد وغيرها من العواصم ما أخذ من تراثها أو إرسال البعثات العلمية إلى تلك العواصم قصد تحقيقه ونسبته إلى أصحابه الفعليين؟ هل سيبقى الإشكال قائماً؟ إنها أسئلة كثيرة قد يُجاب عنها قريباً إن شاء الله.

ملخص

تتناول هذه الرسالة جانبا من النثر الفني الذي عرفته الجزائر خلال العهد الرستمي، وهو

جانب ما زال غير معروف وغير مدروس، وقد اتخذت من هذه الإشكالية منطلقا لمعرفة

جانب من تاريخ الأدب الجزائري القديم.

اشتملت الرسالة على مقدمة و ثلاثة فصول: جاء أولها بعنوان: النثر الفني في الأدب

العربي .

و ثاني الفصول موسوم بـ: فن الترسل في العهد الرستمي.

أما ثالث الفصول فقد جاء تحت عنوان: مقارنة أسلوبية لفن الترسل الرستمي.

وجرى تطبيق المنهج الأسلوبي على الرسائل الرستمية قصد بيان ما فيها من

جماليات، وما اشتملت عليه من تناص في طياتها مع القرآن الكريم وحديث المصطفى ﷺ

، وما انفردت به بعض تلك الرسائل من استخدام مكثف للجملة الفعلية أو الاسمية، أو التراكيب

المختلفة، ودلالات تلك الاستعمالات في الجوانب الصوتية والتركيبية والدلالية .

RESUME

L'objet de cette thèse est l'étude d'une partie de la prose artistique, qu'a connu l'algerie et surtout l'époque rostomide, qui est restée pour longtemps inexplorée qui n'a servi de problématique qui s'initie a découvrir et mettre a jour une partie de l'histoire littéraire de l'algerie ancienne .

La thèse se compose d'une introduction et trois chapitres le chapitre 1 s'intitule ; La prose artistique dans la littérature arabe

Le chapitre 2 s'intitule :

L'art de correspondance durant l'époque Rostomide

Le troisième chapitre s'intitule :

Une approche stylistique de l'art de correspondance rostomide
ce qui a été appliquée sur des lettres rostomides pour mettre en relief l'aspect esthétique et dégager l'intertextualité avec le coran et les hadiths du prophète (que le salut soit sur lui) et ce qu'a contenu quelque lettres de l'emploi intensif de la phrase verbale ou nominale et les différentes structures ainsi que leurs significatif par sur le plan phonique, syntaxique et significatif.

فائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.
- (1) آمنة الدهري، الترسل الأدبي بالمغرب "النص والخطاب" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، المغرب، ط1، 1424 هـ، 2003 م.
- (2) أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1964.
- (3) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1402 هـ، 1982 م.
- (4) أماني سليمان داود، الأسلوبية و الصوفية، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 1423 هـ، 2002 م.
- (5) الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، تح أحمد كروم، عمر بازين، مصطفى بن دريسو دار البعث، ط3، 1423 هـ، 2002 م، الجزائر.
- (6) بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، المطبعة العربية، ط2، 1414 هـ. 1993 م.
- (7) جابر قميحة، أدب الرسائل في صدر الإسلام، ج1، عهد النبوة، دار الفكر العربي، ط1، 1406 هـ، 1986 م.
- (8) الجاحظ، كتاب الحيوان، تح عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط3، 1384 هـ، 1965 م.
- (9) جبور عبدالنور، المعجم الأدبي دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1972 م.
- (10) جني (ابن-)، الخصائص، تح، الشيخ محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت، د ط.
- (11) جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- (12) حبيب مونسي، القراءة والحدائثة مقارنة الكائن والممكن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000 م.

- =====
- 13) حسن عباس، حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، منشورات اتحاد الكتب العرب، دمشق، 2000م.
- 14) حسين جمعة، في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية) منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م.
- 15) حسين محمد علي، التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط6، 1426هـ، 2005م.
- 16) حيان (أبو-) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مكتبة مشكاة الإسلامية.
- 17) حيان (أبو-) التوحيدي، الهوامل و الشوامل، الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث، 2003.
- 18) خلدون (ابن-)، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ط1، 1424هـ، 2004م
- 19) رابح بونار، المغرب العربي تاريخه و ثقافته، دار الهدى، الجزائر، ط3، 2000م
- 20) الرازي، مختار الصحاح، مكتبة مشكاة الإسلامية، د ت ، د ط.
- 21) الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1998م.
- 22) سليمان داود بن يوسف، محاضرات الفكر الإسلامي الحادي عشر، ورجلان، 1397 هـ ، 1977 م، منشورات وزارة الشؤون الدينية، المجلد الأول.
- 23) سنان (ابن-) الخفاجي ، سر الفصاحة، الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث، 2003.
- 24) سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ط2 ، م ، و ، للكتاب، الجزائر ، 1985م.
- 25) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت ، 1424 هـ، 2003م.

=====

(26) السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، مج 2 ، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

(27) الصغير (ابن-)، أخبار الأئمة الرستميّين، تح، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دت، دط.

(28) طاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

(29) عبد ربه (ابن-)، العقد الفريد، دار المسيرة ،بيروت، ط2، 1981م

(30) عبد الجليل منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

(31) عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن دراسة نظرية تطبيقية، المكتبة العصرية، بيروت، 1423هـ 2002م.

(32) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1400هـ ، 1980م.

(33) عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ط2، 1391هـ. 1972م .

(34) عدنان حسين قاسم، الاتجاه البنيوي فقي نقد الشعر العربي، الدار العربية للنشر والتوزيع، 1421هـ، 2001م.

(35) علي جفال، الخوارج تاريخهم وأدبهم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1411هـ، 1990م .

(36) عمر عروة ،النثر الفني أبرز فنونه و أعلامه، دار القصة للنشر، دط، دت.

(37) فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، 1991م.

(38) قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح ، طه حسين، دار الكتب المصرية، دت، دط.

(39) القاضي التتوخي، الفرّج بعد الشدة، الموسوعة الشعرية ،المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث، 2003.

=====

40) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب المصرية ، القاهرة، 1340هـ ، 1922م.

41) لجنة البحث العلمي في جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب من ق1 إلى ق15هـ، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1420هـ، 1999م.

42) لجنة من المؤلفين، في النقد الأدبي، مؤسسة ناصر للثقافة، ط1، 1981م.

43) مبارك الملي، تاريخ الجزائر قديما وحديثا، بيروت، ط2، ج2، 1959، 2.

44) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ط2، 1969.

45) محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والإشهار ، الجزائر 1981.

46) محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

47) محمد كريم الكواز، علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات، منشورات جامعة السابع من أبريل، ليبيا، ط1، 1426هـ.

48) محمد مسعود جبران، في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المجلد الثاني، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004م.

(محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج2، ط1، دار إحياء الكتب، 1382هـ، 1963م.

50) محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف ق4هـ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1406هـ، 1985م.

51) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مشكاة الإسلامية، دت، دط.

52) منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م.

- 53) منظور (ابن_) ،لسان العرب، دار لسان العرب،بيروت، لبنان،دت،دط.
- 54) مهنا بن راشد بن حمد السعدي ،الشيخ عمروس و منهجه الفقهي والعقائدي من خلال كتاب أصول الدينونة الصافية،مطابع النهضة،ش م م،مسقط،ط1، 1424هـ، 2004م.
- 55) موسى سامح ربابعة،الأسلوبية مناهجها وتجلياتها،دارالكندي،الأردن،ط2000، 1م.
- 56) موسى لقبال،المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)،م،و،ك،ط3،الجزائر.
- 57) هلال (أبو_) العسكري،كتاب الصناعتين،الموسوعة الشعرية،الموسوعة الشعرية ،المجمع الثقافي،الإمارات العربية المتحدة،الإصدار الثالث،2003.
- 58) ياقوت الحموي،معجم البلدان،دار صادر للطباعة و النشر،بيروت،1955.

مجالات

- 1) حسين بوحسون،الأسلوبية والنص الأدبي،مجلة الموقف الأدبي،دمشق،عدد 378، تشرين الأول 2002.
- 2) طارق البكري،الأسلوبية عند ريفانير،مجلة الموقف الأدبي،عدد402، تشرين الأول 2004م.
- 3) عبد القادر بوباية،علاقة الرستميين بالإمارة الأموية في الأندلس،مجلة التراث العربي،العدد 100،99،تشرين الأول 2005م،رمضان 1426 هـ .
- 4) محمد بلوحي،بين التراث البلاغي العربي والأسلوبية الحداثية،مجلة التراث العربي،ع 95،أيلول 2004م، رجب 1425 هـ .

فهرس (الموسوس عاا)

11.1.....	مقدمة
44.12.....	الفصل الأول: فن الترسل في الأدب العربي
14.....	أولاً: النشر الفني عند العرب
19.....	ثانياً: فن الترسل

أ/ معناه اللغوي والاصطلاحي	24
ب /الترسل والخطبة	30
ثالثا: أنواعه: أ /الترسل الديواني	32
ب /موضوعاته	33
ج /خصائصه	34
د/الترسل الإخواني	35
هـ/موضوعاته	37
هـ1:الاجتماعية	37
هـ2:الوعظية	39
هـ3:التعليمية	40
رابعا:خصائصه البنائية:	41
أ/بنية المقدمات	41
ب/بنية المضامين	42
ج/بنية الخواتم والنهايات	43
الفصل الثاني:فن الترسل في العهد الرستمي	8145
أولا:الدولة الرستمية	47
ثانيا:اهتمام الرستميين بالعلم	55
ثالثا:الحياة الثقافية في تيهرت	62
رابعا:الأدب الرستمي	64
خامسا:فن الترسل الرستمي	66
سادسا: أعلامه	68
سابعا:موضوعاته	77
ثامناخصائصه البنائية	78
أ/المقدمات	78
ب/المضمون	79
ج/الخاتمة	80
الفصل الثالث:المقاربة الأسلوبية لفن الترسل الرستمي	119.82

84.....أولا: التحليل الأسلوبي أ/توطئة.

85.....ب/تعريف الأسلوب لغة واصطلاحاً.

91.....ج/ثوابت المقاربة الأسلوبية

93.....ثانياً: المقاربة الصوتية.

99.....ثالثاً: المقاربة التركيبية

99.....سمات أسلوبية في الرسائل الرسمية.

100.....أ/تركيب الجمل: 1/الجمل الاسمية.

102.....2/تركيب الجملة الفعلية.

103.....ب/التوكيد.

104.....ج/تراكيب الإضافة.

105.....د/التراكيب الإنشائية:

106.....1/الاستفهام.

107.....2/الأمر

110.....3/النهي.

111.....هـ/اسما الفاعل والمفعول.

113.....رابعاً: ظاهرة التناص في الرسائل الرسمية.

115.....خامساً: المقاربة الدلالية أ/الحقول الدلالية.

116.....1/حقول الألفاظ الدينية.

117.....2/حقول الألفاظ الخاصة بالحكم والولاية والبراءة.

117.....3/حقول الألفاظ الدالة على النصيح والتوجيه.

122.120.....خاتمة

143.123.....ملحق خاص بالرسائل الرسمية.

148.144.....فهرس المصادر المراجع.

151.149.....فهرس الموضوعات.

ملحق خاص بالرسائل الرسمية

الرسالة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على نبيينا محمد و على آله و سلم تسليماً.

و هذه شريعة رسالة كتب بها عبد الوهاب بن عبد الرحمن إمام تاهرت إلى أهل
أَطْرَافُ بِلَاسٍ.

أما بعد فإن الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً عبده و رسوله و الإقرار بما
أنزل الله و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة وصيام
رمضان و حج البيت من استطاع إليه سبيلاً و بالوالدين إحساناً و بذى القربى و
اليتامى و المساكين و ابن السبيل و ما ملكت اليمين و غض البصر و حفظ الفروج و
ستر ما أمر الله به أن يستر والاستئذان على أهل البيوت و النكاح بالرضاء و
الفريضة بإذن الولي و الشهود ذوي عدل و اتقاء المحيض و الغسل من الجنابة و ذكر
سم الله عند الذبيحة و أداء الأمانة إلى جميع الناس البار منهم و الفاجر و الحكم بين
الناس بالعدل و التعاون على البر والتقوى و النهي عن الفحشاء و المنكر و الإثم و
العدوان و التوبة من الذنوب و الشهادة لأهل الهدى بهداهم و ولايتهم عليه ، و الشهادة
على أهل الضلالة بضلالتهم و البراءة منهم فمن أقر للمسلمين بهذا وجبت ولايته

ومودته و الاستغفار له و وجب حقه ما لم يحدث حدثاً يخرج به من ولاية المسلمين.

(¹)

جواب الإمام عبد الوهاب[رحمه الله] إلى جبل نفوسة في مسألة خلف

الرسالة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

و صلى الله على نبينا محمد وعلى آله.

من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس.

أما بعد:فإني آمركم بتقوى الله ،و اتباع ما أمركم به و اجتناب ما نهاكم عنه.و قد بلغني ما كتبتم به إلي من وفاة السمع ،و استخلاف بعض الناس خلفا و رد أهل الخير ذلك.

فإن من ولي خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، و من أبى من توليته فقد أصاب ،فإذا أتاكم كتابي هذا ، فليرجع كل عامل استعمله منكم السمع إلى عمالته التي ولي عليها،إلا خلف بن السمع فحتى يأتيه أمري و توبوا إلى ركم،وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون.(²)

(¹) ابن سلام الإباضي،الإسلام و تاريخه من وجهة نظر إباضية،تح.ر.ف.شفارتز و سالم بن يعقوب،دار اقرأ،ط1،

1405هـ . 1985م ص107.

(²) الباروني،الأزهارالرياضية في أئمة وملوك الإباضية ق2. دار البعث ،الجزائر، ص196.

الرسالة الثالثة:

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه وسلم:
"من أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد ،سلام الله عليك و إني أحمد الله الذي
لا إله إلا هو ،و أسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده و رسوله ﷺ و على آله:
أما بعد:

ألبسك الله عافيته ،فإني أذكرك عظمة الله لا تتساها ،و فكر في صغير خلقتك وفي
عظيم ما خلقه الله و ما جعله من النكال و العذاب لابن آدم و من عافى به من فاز
برحمته من عظيم خلقه من السموات و الأرض و الجبال و الشجر،و أذكرك ما أعده
الله لابن آدم من الكرامة التي تكل الألسن عن وصفها ،فلو لم تكن كرامة تطلب إلا
النجاة من جهنم لكان في ذلك ما ينبغي للعبيد أن ينصفوا من أنفسهم ويفارقوا جميع
اللذات،إلا أنني أقول لك إن الدواء في هذا هو الاستعانة إلى الله في العصمة،فمن أراد
به الإحسان عصمه (أي حفظه من الإصرار على المعاصي ووفقهُ إلى التوبة)،و
جعله من أوليائه الذين قال لإبليس فيهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ سورة
الإسراء: 65،فاطلب الله و ارغب إليه في العصمة والتوفيق و أن يحول بينك و بين
عدوك،و اعلم أنه لاشيء لمن عقل خير ممن وعظه موعظة يأخذها،فاقبل واجتهد في

القبول" إلى أن قال:" وأما ذكرته من أن أجعل لك سبيلا وأطلق يدك وأن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب".

فلعمري إنه لكذلك ولكن ليست في هذا إنما هي أسهم جعلها الله وأوقفها وهي وسخ أموال الناس وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ولا أمر ولا نهى إلا على قدر الاجتهاد فائق الله واجتهد جهدك في توفير الحقوق وتوجيهها إلينا على هذا مضى من كان قبلك " الخ

الرسالة الرابعة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله
أما بعد: عافانا الله و إياك عافية المتقين الذين أنعم الله عليهم بطاعته و هداهم إلى ما
اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولوا الألباب، كتبت
إليك ومن قبلي في عافية و الله لا شريك له، أحببت أن أعلمك ذلك بالكتابة به
إليك، لتحمد الله على ذلك، وتشكره كما هو أهله ، و أوصي نفسي وإياك بتقوى الله ولزوم
طاعته والتوقي على دينه و التوكل عليه وحده ، لا شريك له، فإنه عز و جل يقول: ﴿ و
من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو
حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾

سورة الطلاق: (32)

فألزم التقوى نفسك و أشعرها قلبك و اصبر على ما أصابك إن ذلك لمن عزم
الأمور، والتقوى من الله بمكان عظيم و المتقون هم الفائزون خلصوا من هموم الدنيا
وأشغالها و نجوا من عذاب الآخرة و نكالها ،فمهدوا لأنفسكم،وقدموا لمعادكم،واعملوا
عملاً يسركم غدا مكانه ،فكأنني بكم و قد فارقتم الدنيا ولحقتكم بالموتى،وعليكم بالتمسك
بما مضى عليه سلفكم الصالح أهل الفقه واليقين و البصيرة في الدين ،نظروا إلى
الآخرة بقلوبهم فهان عليهم فراق الدنيا و ما فيها،فلا تغرنكم فإنها فانية زائلة فكأننا و
إياكم قد فارقناها ،فوقفنا بين يدي الله تعالى فيجزي الذين أسأؤوا بما عملوا و يجزي
الذين أحسنوا بالحسنى،عصمنا الله وإياكم بالتقوى و رزقنا العمل بطاعته فإنه ولي
ذلك،و منتهى الرغائب لا شريك له و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ،و
صلى الله على سيدنا محمد وآله و صحبه وسلم".(3)

الرسالة الخامسة:

جواب الإمام عليه السلام إلى المسلمين في شأن نفاث

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و سلم.
من أفلح بن عبدا لوهاب،إلى ميال بن يوسف يقرؤه على من بحضرته و يوجهه إلى
كل من يرى توجيهه إليه ،أما بعد :فالحمد لله المحسن إلى أوليائه المنعم عليهم بحسن
بلائه، معز أهل طاعته،و ناصر القائمين بحقه فليس من اتبع أمره

(3) الباروني،الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية ق2 دار البعث ،الجزائر،ص244، 245، 246.

بمخذول،"أحمده"على ما أنعم به علينا وأحسن فيه إلينا حمداً أبلغ به رضاه وأستوجب به المزيد إنه قدير ،انتهى إلي الكتاب الذي كتب به إليك ،(تحية بن عابدين) فقرأته وفهمت كل ما ذكره لك فيه عن كل خائب جاهل ،بما هو عليه متحامل على ما لا علم له به متخبط في أموره خبط عشواء ،لم يبلغ العلماء،فيقتبس منهم،و لم يصحب أهل الورع فتحجزه آثارهم عن الهجوم على ما لا علم له به، لكنه نشأ وحيدا أقام متوحشاً من العلماء فتقلب في جوانحه الشيطان بنفخاته،فأورثه الكبر وعظم عليه الوقوف دون ما لا يعلم حتى يعلم،فهجم على ما لا يحل له،فكل شيء خطر على قلبه تكلم به مصيباً كان أو مخطئاً،و ما أصابه من شيء على غير علم فأصابته خطأ،إذ تكلم بما لا علم له به،و ما أصابه من خطأ فهو مخطئ فيه ،فهو يتردد في الخطأ:إن أصاب لم يدر،و إن أخطأ لم يدر،فهو راكب مشكلات يخبط خبط عشواء، كحاطب ليل لا يدري ما يحطب،و لعله يحتطب ما فيه حتفه أو حية تأتي على نفسه، فنعود بالله من الفتنة و من السلوك على منهاج ذلك الرجل.

لقد كان من قبلكم من المسلمين ،لا يدعون مثل هذا يدخل مجالسهم،و لا يشهد جماعتهم،وكان عندهم مقصى و مبعدا مدحورا يهجرونه و لا يجالسونه،حتى يرجع إلى سنة المسلمين،و أنتم محققون باتباع آثار سلفكم،و السلوك على منهاجهم ،و أن تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما كان يفعله سلفكم بمن كان قبله لكي ينزجر من أراد الله به

خيراً،وينتبه غيره ممن يخاف عليه الاقتداء به و أتباعه،ولا تظهر سنن أهل البدع ولا تقوم للشيطان دعوة أنا مبتدئ لكم ما ذكره ورا د عليه ضلالتة . (4)

الرسالة السادسة:

الرسالة الثانية للإمام أفلح إلى المسلمين في حق نفاث

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم،

من أفلح بن عبدا لوهاب إلى.....(بياض في الأصل)،

أما بعد:ألبسنا الله و إياك عافيته،و كفانا و إياك مهمات الأمور برحمته.

كتبت إليك و أنا و من قبلي و خاصتي و الرعية عامة على أحسن أحوال جرت به

عادة الله وتواترت به نعمائوه فله الحمد كثيرا و الشكر دائما .

أتاني كتابك بالذي أحب علمه من سلامتك،و حسن حالك،و تواتر نعم الله

عليك،وإحسانه إليك،و إلى من قبلك من الرعية،و أهل الطاعة فسرني بذلك،وحمدت

الله كثيرا عليه وسألته تمام النعمة علينا و عليكم برحمته إنه مجيب،و ذكرتم أمر

نفاث،و أكثرتم فيه من الكتب ووصفتم عنه أشياء لا يشك أحد منكم في أنها بدعة

وخلاف لما مضى علي سلفكم،فإن يك ذلك كما وصفت فما ينبغي لأحد منكم أن

يخالجه الشك في أن ذلك ضلال،لأن الهدى في أيديكم،و الحق ما شرعه لكم سلفكم

الصالح و الأئمة المرضيون رضي الله عنهم من أتى من بعدهم يخالف شريعتهم ويأخذ في غير طريقهم،فهو ذو بدعة و كل بدعة ضلال،وكل ضلال كفر،و كل كفر في النار،و أنتم على يقين من سنة أسلافكم،ولايتبع الهدى إلا في موافقتهم،و لا يخاف العاقل الهلاك إلا في خلافهم وقد قلتم في كتابكم "هو غلام حدث غر لا تجربة له في الأمور،فنخاف أن جشمناه السفر والشخوص أن تحمله اللجاجة مع إعجاب الرأي والتهيه بالنفس على التماذي فيما يهلك به نفسه"،فما وجه ما سألتكم من ذلك؟و هل أنتم على شك من دينكم أو ريبة في أمركم؟السنة في أيديكم و أسلافكم الماضون على مثل حالكم،بل كانت لهم عمال في حال كتمانهم و كبار يقومون بكل أمر من الحقوق و غيرها في حال الكتمان وليس أحد منهم يقول ما حكيتموه عن هذا الغلام.

فلما حدث منه ما ذكرتموه كان أمره واضحا و هو أنه أخذ بخلاف ما مضى عليه سلفه وأحدث مقالة،لم يقلها غيره و أنتم على يقين من أمركم فما أحوجكم إلى مجيئه و أشخاصه وإن كنتم تريدون أن تعلموا ما نحن عليه،فنحن على ما مضى به سلفنا،و مقرون ما حكيتموه عنه أن قاله،فقوموا عليه فإن رجع عن مقالته،ونزع بدعته،فمقبول منه رجوعه و مرحبا بالتائب حيث كان و ممن كان و أين كان،و إن أبى إلا التماذي فأنتم تعلمون السيرة فيمن ابتدع في دين الله و شق عصا الإسلام،وقال بخلاف الحق،فإنه محقوق بأن يهجر و يقصى ويبعد، و نفاث مثل واحد من الناس لا أخصه بشيء دون غيره،و السيرة فيه و في غيره واحدة،والسنة قائمة وحكم الله لا يزول و لا

يتبدل،فإننا نشهد الله على من كان من أهل هذه الدعوة وعمالنا و قوادنا و أهل العلم من أصحابنا و من التف إليهم من رعيتنا،لا يسمع أحد يبتدع في دين الله أو يسلك طريقة غير طريقة أصحابنا الماضين من أسلافنا،إلا و يكون قد غير ذلك و أطفأه،و استتاب من أظهره،فإن لم يتب خلعه،فهذه مني عزيمة واجبة و أمر لازم و فرض محرم،أن يتعدى و أن يقول بخلافه،فمن قرئ عليه كتابي هذا،فليسمع وليطع،ولينتبه إلى ما أمرت به،فإن من انتهى إليه كتابي هذا في حرج إن قصر عما أمرت به،و من عاب أحدا من عمالنا بخصلة من الخصال أو أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك إلينا فنكون نحن الذين يغيرونه إن كان مما يغير.

و ليس للرعية الوثوب على السلطان حتى ترفع ذلك إلينا،لأن الوثوب على السلطان والافتقار للخصال التي نحن أولى بالنظر فيما خطأ من الرعية و ضرب من ضروب السائبة،لأن هذا و ضربه مما لا يعلم باطنه إلا بالبحث،و قد ظن الظان في الأمر فيراه خطأ و هو عدل من حيث لا يعلم و لم يظلم من دعاكم لنفسه و كلفكم بأن ترفعوا أموركم إليه لأن في ذلك شفقة منا عليكم أن تهلكوا من حيث لا تعلمون،و الله ولي عصمتنا وتوفيقنا و إياكم وهو المستعان لا شريك له.

و قد كتبت إليك جواب مسألك،فعليك بتقوى الله و العمل بطاعته و حسن النظر
لنفسك فإنها إن سلمت لك،فقد نجوت و فزت فوزا عظيما،و لاتدع الكتابة إلي بحالك و
سلامتك فإنك تسرني بذلك و السلام.⁽⁵⁾

الرسالة السابعة:

الرسالة الثالثة للإمام أفلح رحمه الله أرسلها إلى نفاث
من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر،أما بعد:
فالحمد لله المنعم علينا و المحسن إلينا الذي بنعمته تتم الصالحات،و لا يهتدي
مهتد إلا بعونه و توفيقه فله المنة علينا،و لأمنة لنا عليه،و هو المحسن إلينا إذ هدانا
لدينه،و جعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين، و أئمتنا المهتدين، الذين في اتباعهم
نرجو الهدى،و في مخالفتهم نخشى الهلكة،و لن يهتدي من خالف العدل،ولن ينجو من
ابتدع غير الحق،لأن تلك البدعة ضلالة و كل ضلالة كفر و كل كفر في النار.
وقد كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه و أدعوك إلى رشدك و في كل ذلك لا
يلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره و ما لا أرضاه لدين و دنيا حتى حررت كتابا
منشورا إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين،و ابتدع غير
طريقتهم و سار بغير سيرتهم،وبنفيه و هجره و إقصائه،فكتبت إلي كتابا كأنك تسخط

(1) الباروني،الأزهار الرياضية في ملوك و أئمة الرسمية،ص 264، 265 .

ذلك، أترى أنني أوازر من ابتدع في ديننا (كلا) ما كنت بالذي يفعل ذلك، ولا أوازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى .

ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا، فأنت محقوق بالبراءة و مقصى من جماعتنا لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا، و زعم أن عمالنا أساقفة، و أنهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم، فهو محقوق بالبراءة و مقصى من جماعة المسلمين، فإن تكن أنت منهم فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك وأحللت بنفسك ما لا بد لنا أن نفعله بك وبغيرك، وإن لم تكن كذلك فظاهر الانتفاء من ذلك، وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها و تستوجبها.

وأما قولك (تب مما كتبت به) فهو منك عبث، إذ لم أشاهدك و لم أشاهد موافقتك، حتى يجب لك على أصل ولاية، و لم يكن لك عندي مقدمة في الموافقة، وإنما رفع إلينا عنك ما رفعه أهل الثقة عندنا فأمرنا عمالنا أن يسيروا في كل من ابتدع بسيرة في المسلمين، وكتبنا إليهم بذلك، فجعلت تكتب إلينا فيما ليس لك به كتاب، فعلام تتجاهل الأمور، فإن كنت في غايتك إنما هي أن نكتب إليك و تجيب وتكتب إلينا ونجيب فهذه غاية قصيرة و السكوت عنك أهنا وأولى بنا، و نحن بمأمنينا به أحق من مجاوبة أهل التكلف و من ليس له غاية إلا أن يقال فيه كتب فلان، و فعل فلان، و إن كانت غايتك التصحيح، فانف عن نفسك ما رقي عليك، وكن من جماعتنا و موافقي

أسلافنا، فإذا تبينت منك الموافقة و الانتفاء مما رقي عليك كان ذلك الذي نحبه منك، ومن غيرك وليس لك عندي غير هذا، وإن يكن حقاً مارقياً عليك، وما قيل فيك من مخالفة أصحابنا، فأنت وما رضيت به لنفسك ، وإني غير كاتب إليك كتاباً بعد هذا، إلا إن انتهى إلينا منك ما نحبه، فننزلك من أنفسنا بحيث تحب، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.(6)

النصيحة العامة من الإمام أفلح رحمه الله إلى كل من كان تحت لوائه من المسلمين
بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.
[من أفلح بن عبد الوهاب]، إلى من بلغه كتابنا هذا من المسلمين ، [أما بعد] فالحمد لله الذي هدانا للإسلام ، و أكرمنا بمحمد عليه الصلاة و السلام ، و أبقانا بعد تناسخ الأمم، حتى أخرجنا في الأمة المكرمة التي جعلها أمة وسطاً شاهدة لنبيئها بالتبليغ، ومصدقة لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام إليهم منا من الله و رحمة.

أرسل إلينا نبيئه محمداً . صلى الله عليه و سلم . بالهدى و وعده بالنصر، الأعداء وضمن له الفلج و الغلبة و وعده بالعصمة و قال له عز و جل: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس.﴾
(المائدة: 67).

(6) الباروني، الأزهار الرياضية في ملوك وأئمة الإباضية، ص 267، 268، 269.

فأدى عليه الصلاة و السلام ،ما أمر الله به، و نصح لأمته و دعا إلى سبيل ربه،وجاهد عدوه،و غلظ على الكفار ،و لان للمؤمنين، فكان لهم كما وصفه الله عز وجل ر ووفاً رحيماً ،حتى انقضت مدته، وفنيت أيامه و اختار له ربه ما عنده، فقبضه محمود السعي مشكور العمل . صلى الله عليه و سلم . .

فلم تبق خصلة من خصال الخير الدالة على الرشد،الداعية إلى النجاة إلا و دعا إليها وسنها أو فرضها أو أوجبها نو لم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها وأمر باجتنابها ،رحمة من الله لعباده فله الحمد على ذلك كثيراً.

ثم أمر بالجهاد في سبيله و القيام بحقه، و الأخذ بأمره و الانتهاء عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف ،و النهي عن المنكر،و إغاثة الملهوف و القيام مع المظلوم، و القمع للظالمين،لكي لا تقوم للشيطان دعوة ، و لا تثبت لأهل حربه قدم،و لا ينفذ لهم حكم ،فالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر عماد الدين،وإعزازه وهو الجهاد و تأدية الحقوق الواجبة لله تعالى.

فعلیکم معشر المسلمین بتقوی الله العظیم و القيام له بحقه ،فیما وافق هواکم أو خالفه وتقربوا إلى الله بالقيام بطاعته و طلب مرضاته، لتتالوا بذلك ما وعد به من جزیل الثواب و کرم المآب .

وعلیکم بتقوی الله ، و اتباع آثار سلفکم،فقد سنوا لکم الهدی ،و أوضحوا لکم طریق الحق،وحملوکم على المنهاج،ففي اتباعهم النجاة و في خلافهم تخشى الهلكة، فاتبعوا و

لا تبتدعوا، و اجتهدوا في إدراك ما أدركوه، و إياكم و البدع فإن البدع هلكة، وسوء
طريقة، وكل بدعة ضلالة، و كل ضلالة كفر، وكل كفر في النار، فمن ترك آثار سلفكم
الصالحين ، و اتبع غير سبيلهم فقد أحل بنفسه الهلكة و وجب عليكم القيام عليه
والبراءة منه، و خلعه مما هو عليه حتى لا يجد عندكم هودة، ولا ادهانا و حتى لا تقوم
لظالم حجة، و تطاع له مقالة فإنكم متى لم يجد ظالم فيكم و لا عندكم مقاما عززتم و
عز دينكم ، و كان لكم ذلك من الله فوزا عظيما.

[واعلموا] أن الله قد أوجب عليكم أن تقوموا لله بالعدل في عباده و بلاده، و لا تأخذكم
في الله لومة لائم ، فليس لأحد منكم عذر و لا حجة، يحتج بها على الله، فقد أوضح
لكم المنهاج ، وأنار لكم طريقة الحق و جعل لكل زمان رجالا تسند إليهم الأمور ،
ويأمرون فيطاع أمرهم، ويدعون فيجاب نداؤهم ، و أنتم رجال زمانكم، والكبراء من أهل
موضعكم فأعرضوا أعمالكم على أعمال من تقدم قبلكم ،من سلفكم و أهل الزمان
الأول من أوائلكم ، فإن كانت أعمالكم موافقة لأعمالهم ، فالله على ذلك محمود، و
عليكم الثبوت و الازدياد من كل خير ، وإن كانت أعمالكم قد قصرت عن أعمالهم، و
حطمكم الذنوب عن البلوغ إلى درجاتهم فأحسنوا محاسبة أنفسكم وانتبهوا من نومة
الغفلة و خذوا لأنفسكم من أنفسكم ، وأنتم سالمون من قبل أن تؤخذوا و يؤخذ منكم
بالكظم ، و تصيروا في حالة لا يستغيث فيها مستغيث، و لاتقبل من نفس فدية، فاتقوا
الله حق تقاته، و تواصلوا بالبر و التقوى ، ومروا بالمعروف المفترض عليكم ، و انهوا

عن المنكر الذي قد نهيتم عنه، و ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها السموات و الأرض أعدت للمتقين﴾، (آل عمران:133)، فإنكم لن تسارعوا إليها بالأمانى و التوكل ، و إنما تسارعون إليها بالعمل الصالح والمسارة إلى مرضاة ربكم ، و لن تنالوا ذلك إلا بعون الله و توفيقه.

ثم أحذركم أهل البدع، الذين لم يعرفوا حقا فيتبعوه،و لن يلقوا أهل العلم فيقتبسوا منهم الدين عاشوا مع أهل الجهل فخلا بهم الشيطان ،و نفخ في قلوبهم الكبر،وأورثهم العجب، فاستحيوا أن يقولوا فيما لا يعلمون لا نعلم، فأفتوا برأيهم أقواما جهلة،لا يعرفون ما يقال لهم ،فضلوا وأضلوا كثيرا، و ضلوا عن سواء السبيل ،فويل لهم ماذا لهم أنفسهم ، و ما الذي ظنوه وأملوه إذا تركوا آثارهم من مضى من السلف الصالح،هل يخافون الهلكة في اتباع آثارهم، أو يرجون النجاة في خلاف سبيلهم ، كلا، و لكنهم اتبعوا أهواءهم بغير حق ،فألزمتهم فتنة الجهل وانتفخت صدورهم من نفخة الكبر ،لم يحاسبوا أنفسهم فينكشف لهم خطأهم.

[فاحذروا] معشر المسلمين،من كانت هذه صفته، و من حل بهذه المنزلة و رضيها لنفسه،واعلموا أن من كان كهذا ، فقد صار من حزب الشيطان ،و أوليائه لأن الشيطان لم يضل و لم يهلك إلا من باب الكبر، أمره الله أن يسجد لآدم صلى الله عليه و سلم . فتكبر عليه ،« و قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقتة من طين» (سورة الأعراف :12)،فويله ماذا عليه من آدم إذ خلقه الله من طين، لو سجد له كما

أمره الله تعظيما لله لا لآدم و طاعة لله لا لآدم ، و إن كان آدم من طين فهو إنما يطيع الله لا آدم، و لكنه تكبر فهلك ، و عاند فكفر و غوى فضل وأصر فأهلك نفسه،و لم يضر ذلك آدم، فهكذا هؤلاء المبتدعون الراغبون عن آثار سلفكم ،و اتباع منهاجكم ، و السلوك علة طريقكم ، لم يضرروا إلا أنفسهم،و لم يحطبوا إلا على ظهورهم ،و لم ينقصوا إلا حظهم و لم يذهبوا إلا نصيبهم ،فأما أنتم على بصيرتكم إن تجنبتم طريقة المبتدعين و خالفتم سنة الظالمين فـ«اتقوا الله حق تقاته ،و لا تموتن إلا وأنتم مسلمون،و اعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا و اذكروا نعمة الله عليكم » (آل عمران 102.103)، وإحسانه إليكم و ارغبوا إليه في التوفيق والعصمة، و احذروا ما حذركم منه من أليم عقابه ، و ارغبوا فيما رغبتكم فيه من جزيل ثوابه و اذكروا ما نهاكم عنه،وما وصفه لكم من المبتدعين قبلكم،ومن أضل من الناس فيما مضى ،قال عز من قائل:« و لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات و أولئك لهم عذاب عظيم» آل عمران 105.

لعمري ما تفرقوا إلا ببدة ابتدعوها ،و ضلالة أحدثوها،و فتنة رماهم الشيطان بها ،فنفخ في قلوبهم الكبر ،وأورثهم العجب،فحملهم على ترك المنهاج الذي مضى عليه صالح سلفهم،وزين لهم بدعتهم و صيرهم بعد الهدى ضلالا،و بعد الإيمان كفارا،فقال عز وجل فيهم:« أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» (آل عمران:106)،فسماهم كفارا بعد الإيمان بما أحدثوه و ابتدعوه إذ تركوا ما شرع لهم من

من الدين ،و قال عز من قائل:« و أما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون» (آل عمران :107)،فمدحهم إذ ثبتوا على دينه،و اتبعوا أمره وسلوكوا منهاج أوائلهم.

فعليكم معشر المسلمين باتباع الآثار ،و العمل بما عمل به أسلافكم المتقدمون قبلكم ،فقد سنوا لكم الهدى ،ففي اتباعهم كل رشد و في مخالفتهم كل غي،و الرشد خير من الغي والهدى خير من الضلالة، و الجنة خير من النار،و لن يستوي عند الله من عمل بطاعته وأمره ،و من عمل بمعاصيه و ركب سخطه ألم تسمعه يقول عز وجل:« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون »(الجاثية:20).

[هذا] و قد بالغت إليكم في النصيحة، و شرحت لكم الموعظة،و رضيت لكم بما رضيت به لنفسي،- ونهيتكم عما أنهى عنه نفسي،نصيحة لله و اجتهدا في طلب رضائه، و الله أسأل أن يوفقنا و إياكم لطاعته و القيام بحقه برحمته إنه قدير والسلام عليكم و رحمة الله.(7)

الرسالة الثامنة:

رسالة الإمام أبي اليقظان محمد بن أفلح إلى جميع رعيته إرشادا و نصحا
بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

(7) الباروني،الأزهار الرياضية في ملوك و أئمة الرسمية،ص 280 و ما بعدها.

[من محمد بن أفلح]إلى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين، سلام عليكم و إني أحمد
الله الذي لاإله إلا هو ، و أسأله الصلاة و السلام على نبي الرحمة و هادي الأمة ،
صلى الله عليه وعلى آله و سلم

[أما بعد]: فإن أفضل ما يتوصى به العباد و يتحاضوا عليه، تقوى الله تعالى، ولزوم
طاعته والزجر عن معصيته، و الترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب، والعمل
الصالح.

[و عليكم معاشر المسلمين بالتهيؤ للقدوم على الله، و التأهب و الاستعداد ليوم
تشخص فيه الأبصار،و تتغير فيه الألوان،و يشيب فيه الولدان،و«تذهل كل مرضعة
عما أرضعت ،وتضع كل ذات حمل حملها و ترى الناس سكارى و ما هم بسكارى و
لكن عذاب الله شديد»(الحج).

[و اعلموا] رحمكم الله أن أهل العلم بالله القائمين بهذه الدعوة،قد انقضوا و قلت
الْخُلُوف منهم ،فرحم الله امرءً احتسب لنفسه و أرصدها لله في طلب العلم،والنقض على
من حاد الله و عدل عن مناهج رسول الله . صلى الله عليه و سلم . ،وضاد المحقين
من عباده،حتى تكون كلمة رسول الله هي العليا،و الباطل زهوقا.

و عليكم معاشر المسلمين باتباع الماضي من أسلافكم ،و المتقدمين من أئمتكم
الصالحين،من أهل دعوتكم،فاقتفوا آثارهم و اهتدوا بهداهم ،و احذروا الزيغ عن
طريقهم، و الميل عن مناهجهم ،و خالفوا أهل البدع المضلة و الأهواء المُرَّة، ممن

أراد أن يبدل دينكم و يلبسكم شيئا و يلبس عليكم أمركم ممن اتبع هواه واستحوذ عليه الشيطان و نبذ ما جاء به القرآن، فألبس على الضعفاء أمرهم، وزين بدعته في قلوبهم فخدع من لا بصيرة له و لا علم بما مضى عليه الأئمة الراشدون . رحمة الله عليهم . و السلف الصالحون من أهل دعوتكم فأفضل كثيرا و ضل عن سواء السبيل، وقد ذكرنا لكم ما فيه الكفاية إن شاء الله، و به نستعين و عليه نتوكل ، و ما توفيقنا إلا بالله.

الرسالة التاسعة:

جواب علماء المشاركة إلى المغاربة

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على نبينا محمد و آله الطاهرين .
[أما بعد] فقد بلغنا يا إخواننا ما كان من قبلكم ، و فهمنا ما كاتبتمونا به، أما ما كتبتم من أمر الشرط، فليس من سيرة المسلمين أن يجعلوا الشرط في الإمامة أن لا يقضي أمرا دون الجماعة.

و لو صح في الإمامة شرط، لما أقيم لله حق و لاحد، و لعطلت الحدود و بطلت الأحكام وضاع الحق ، على أن الإمام إذا قدم إليه سارق فلا يصيب أن يقيم عليه حدا فيقطع يده حتى تحضر الجماعة التي ذكرنا ، أو زنى أحد فلا يرمم و لا يجلد، حتى تحضر أيضا، ولا يجاهد الإمام عدوا و لا ينهي عن فساد إلا بحضرة الجماعة المعلومة، و الجماعة يتعذر اتفاقها فالإمامة صحيحة و الشرط باطل.

وأما ما ذكرتم من تولية رجل من المسلمين إذا كان فيهم من هو أعلم منه ،فذلك جائز،إذا كان الثاني من القناعة و الفضل بمنزلة حسنة، فقد ولي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وزيد بن ثابت أقرض منه، و علي بن أبي طالب أقرض منه،ومعاذ بن جبل أعلم منه، وهذا ليس فيه اختلاف لقول رسول الله . صلى الله عليه و سلم: ((أفرضكم زيد، وأقضاكم علي ،و أقرؤكم أبيّ ،و أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل))، و قوله . صلى الله عليه و سلم : ((معاذ بن جبل سيد العلماء،سيحشر غدا . يوم القيامة. إمام العلماء))، و عليكم السلام و رحمة الله وبركاته. (8)

الرسالة العاشرة:

رسالة من الإمام عبد الوهاب إلى أبي عبيدة

وكتب الأمام . عبد الوهاب . إلى أبي عبيدة يأمره بالدخول في أمور المسلمين،ويقول له:

((إن كنت ضعيفاً في المال ،فبيت المال تغنيك،وإن كنت ضعيفاً في البدن،فادخل في أمور المسلمين يقوي الله بدنك ،وإن كنت ضعيفاً في العلم ،فعليك بأبي زكريا يصلتين التو كيتي*)) (9)

الرسالة الحادية عشرة:

(8) الباروني، ص 142، 143.

* - ترجم له الشماخي،فقال نقلا عن أبي العباس،"إنه كان علما لكل الفضائل ،و معلما لكل ناهل،وهو أحد أعلام الطبقة الخامسة.

(9) كتاب سير الأئمة و أخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا،تح إسماعيل العربي ،دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان،ط2، 1402هـ -1982م،ص124.

رسالة كتب بها أبو الخطاب وسيم إلى نفوسة عندما عاتبته في أشياء فعلها فرد عليهم بهذه الرسالة التي ذكرها أبو زكريا في تاريخه وقد جاء فيها:

((أما ما ذكرتموه من التزامي من الأمور ليقظان ،لم ألتزمتها ليقظان، وإنما التزمتها احتساباً لله. وأما ما ذكرتموه من أموال الأيتام و الأرامل ،فإن الظلّمة إذا قبلت إليهم أمرتهم أن يداروا عن أنفسهم ،و أما الاستفتاء في النّكار، فلم أحكم إلا بما عندي ،و أما تقديمي في الصلاة الخلفي .فإنني إذا صليت الفريضة ناديت يا فتح،فيتقدم فيصلني بالناس،و لم أمره بالتقدم،و السلام. (10)

(10) المرجع السابق،ص198.